كامل كيلانى

قصص من ألف ليلة

مدينة النحاس

رسوم : سمير عزيز

obeikandl.com

الفَصْلُ الأَوَّل

١ـ هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

هَبَّتِ الْعَاصِفَةُ شَدِيدَةً عَاتِيَةً، وَتَعَالَتْ أَمْوَاجُ البَحْرِ هَادِرَةً صَاخِبَةً، تُهَدِّدُ السَّفِينَةَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَاسْتَوْلَى الخَوْفُ عَلَى رُكَّابِ السَّفِينَةِ وَمَلَّاحِيها وَرُبَّانِها، وَخَارَتْ مِنْهُمُ الْقُوَى، وَكَادَ اليَأْسُ يَسْتَوْلِى عَلَيْهِمْ، لَوْلا مَا بَعَثَهُ أَمِيرُهُمْ «إِقبالٌ» الشَّجاعُ مِنْ أَمَلٍ فى نُفُوسِهِمْ؛ بِفَضْلِ مَا أُوتِىَ مِنْ ثَباتِ قَلْبٍ، وَقُوَّةِ عَزِيمَةٍ، وَبَراعَةِ حِيلَةٍ. وَالشَّجاعَةُ تُعْدِى كَمَا يُعْدِى الخَوْفُ، وَتَنْتَقِلُ مِن شَخْصٍ إِلى آخَرَ كَمَا يَنْتَقِلُ المَرَضُ.

وَكَانَ «إِقْبالٌ» مِنْ أَفْذاذِ الرِّجالِ الَّذِينَ تَزِيدُهُمُ الشَّدائِدُ صَلابَةً وَقُوَّةً، فَراحَ يُصْدِرُ إِلَيْهِمْ أَوَامِرَهُ تِباعًا ـ فى بَراعَةٍ وَحُنْكَةٍ وَذَكَاءٍ ـ حَتَّى كُتِبَتْ لَهُمُ السَّلامَةُ بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضُوا لِلْهَلاكِ يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ، كانَتِ العَواصِفُ تُهَدِّدُهُمْ ـ فى خِلالِهِمَا ـ بِالغَرَقِ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ.

فَلَمَّا جَاءَ اليَوْمُ الثَّالِثُ سَكَنَتِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ، وَهَدَأَتِ الأَمْوَاجُ الثَّائِرَةُ، وَنَجَتْ سَفِينَةُ الأَمِيرِ، كَمَا نَجَتْ سَفائِنُ أَتْباعِهِ وَحَاشِيَتِهِ مِنَ الغَرَقِ.

٢ـ حِوَارُ الأَمِيرِ وَالرُّبَّانِ

وَمَا إِنْ تَبَيَّنَ الرُّبَّانُ مَوْقِعَ السَّفِينَةِ مِنَ البَحْرِ حتَّى صَرَخَ مُتَأَلِّمًا، وَقالَ :

«لَقَدْ نَجَوْنا ـ يَا سَيِّدِى الأَمِيرَ ـ مِنَ الْغرَقِ، وَلكِنَّنا لَمَّا نَنْجُ مِنَ الهَلاكِ».

فَسَأَلَهُ الأَمِيرُ:

«مَاذا تَعْنِى؟».

فَقَالَ الرُّبَّانُ:

«لَقَدْ ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ؛ فَمَا نَعْلَمُ فى أَىِّ مَكَانٍ مِنَ الدُّنْيَا طَوَّحَتْ بِنَا الْعَاصِفَةُ؟ وَمَا يَدْرِى أَحَدٌ: أَيُتاحُ لِسَفائِنِنَا (مَراكِبِنَا) أَنْ تَرْسُوَ عَلَى البَرِّ، أَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْضِىَ مَا بَقِىَ مِنْ أَيَّامِنَا فى الحَياةِ هَائِمِينَ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ حتَّى يَنْفَدَ مَا مَعَنَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرابٍ؛ فَنَهْلِكَ جُوعًا وَعَطَشًا بَعْدَ أَنْ نَجَوْنا مِنَ المَوْتِ غَرَقًا؟».

فَقَالَ الأَمِيرُ الشُّجَاعُ :

«لا تَجْزَعْ ولا يَهِنْ مِنْكَ الْعَزْمُ، فَإِنَّ عِنَايَةَ اللهِ الَّتِى يَسَّرَتْ لنَا طَرِيقَ الخَلاصِ مِنْ خَطَرِ العَاصِفَةِ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تُيَسِّرَ لنَا طَرِيقَ النَّجَاةِ. فَإِذا كانَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ قَدْ كَتَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَمُوتَ فى هَذِهِ

الرِّحْلَةِ، فَلَا حِيلَةَ لأَحَدٍ فِيما قَضَى اللهُ. وَمَا أَجْدَرَنَا أَنْ نُواجِهَ المَوْتَ ـ كَمَا نُواجِهُ الحَياةَ ـ بَاسِمِينَ غَيْرَ هَيَّابِينَ وَلَا خَائِفِينَ. وَلَيْسَتْ هذِهِ أَوَّلَ عَاصِفَةٍ نَلْقَاهَا فِى رِحْلاتِنَا، وَمَا أَحْسَبُهَا آخِرَ عَاصِفَةٍ تُكْتَبُ لنَا السَّلَامَةُ ـ بِإِذْنِ اللهِ ـ مِنْ أَهْوَالِهَا».

٣ـ الرَّاحَةُ بَعْدَ التَّعَبِ

وَهكذا رَدَّ الأَمِيرُ الشُّجَاعُ الطُّمَأْنِينَةَ إِلَى قُلُوبِ أَصْحابِهِ. وَسَارَتْ سَـفَائِنُ الأَمِيرِ تَحْمِلُهُ مَعَ حاشِـيَتِهِ وَجُنُودِهِ فى الْبَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدًى خَمْسَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ.

ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فى الْيَوْمِ السَّادِسِ عَلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ الأَمِيرُ وَرِفَاقُهُ إِلَى الْبَرِّ آمِنِينَ شَـاكِرِينَ اللهَ حَامِدِينَ، وَجَلَسُوا يَلْتَمِسُونَ الرَّاحَةَ مِنْ عَناءِ السَّـفَرِ بَعْدَ أَنْ كَابَدُوا فى رِحْلَتِهِمُ الطَّوِيلَةِ الشَّاقَّةِ مَا كَابَدُوا مِنْ أَهْوَالٍ.

وَلَمَّا اسْـتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقَامُ رَأَوْا مِنْ دَلائِلِ الخِصْبِ وَالْخَيْرِ العَمِيمِ مَا مَلأَ نُفُوسَهُمْ بَهْجَةً وَإِعْجَابًا، حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَلُّوا فى جَنَّةٍ مِنْ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ أَنْهَارٍ وَأَشْـجَارٍ، وَرِياضٍ تَحْفِلُ بِأَطايِبِ الثِّمارِ وَالأَزْهَارِ!

وَلَبِثُـوا أَيَّامًـا يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يَرَوْا إِنْسَـانًا يَسْـأَلُونَهُ عَنِ اسْـمِ الْمَكانِ الَّذِى حَلُّوا بِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا.

٤. المَدينَةُ المُوصَدَةُ

وَذا صَباحٍ خَرَجَ الأَمِيرُ يَرْتَادُ تِلْكَ الأَنْحَاءَ لِيَتَعَرَّفَ شَيْئًا عَنْهَا، فَانْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَقَصَدَ إِلَيْهِ، ثُمَّ صَعَّدَ فِيهِ، وَمَا زَالَ مُصَعِّدًا فِيهِ حَتَّى بَلَغَ قِمَّتَهُ.

فَرَأَى عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ سُورَ مَدِينَةٍ عَالِيَةٍ، فَأَيْقَنَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ، وَأَسْرَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ يُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَى. وَكَانَ الْمَسَاءُ قَدِ اقْتَرَبَ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِى مَكَانِهِمْ، وَاسْتَأْنَفُوا السَّيْرَ فِى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِى حَتَّى بَلَغُوا ذِرْوَةَ الْجَبَلِ، ثُمَّ هَبَطُوا إِلَى سَفْحِهِ الآخَرِ، واسْتَرَاحُوا يَوْمَهُمْ، مُسْتَأْنِفِينَ فِى صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِى سَيْرَهُمْ، فَرَأَوْا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً عَالِيَةَ البُنْيَانِ، مُشَيَّدَةَ الأَرْكَانِ، يَحُفُّ بِهَا سُورٌ عَالٍ مِنْ كُلِّ جِهاتِهَا، وَرَأَوْا أَبْوَابَهَا النُّحَاسِيَّةَ مُغْلَقَةً قَدْ أُحْكِمَ رِتاجُهَا بِالْمَتَارِيسِ وَالأَقْفَالِ، فَاسْتَحَالَ الدُّخُولُ إِلَيْهَا، وَلاحَ لَهُمْ فِى أَعْلَى السُّورِ بُروجٌ مُحَصَّنَةٌ، أَبْوابُها مِنَ النُّحَاسِ، أُتْقِنَتْ نُقُوشُهَا وَزَخارِفُهَا أَيَّما إِتْقَانٍ.

فَأَقامُوا يَوْمَهُمْ يُدَبِّرُونَ الحِيلَةَ فِى دُخُولِهَا، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِمْ.

٥ـ السُّلَّمُ الكَبِيرُ

فَأَشارَ عَلَيْهِمُ الأَمِيرُ أَنْ يَعْمَلُوا سُلَّمًا كَبِيرًا يُسامِتُ ذِرْوَةَ سُورِهَا العَالِيَ؛ لِيُمَكِّنَهُمْ مِنْ فَتْحِ أَبْوابِهَا، وَتَعَرُّفِ خَبَرِهَا وَعَجائِبِهَا، وَسُؤَالِ أَهْلِهَا عَنِ اسْمِهَا، وَمَكانِهَا مِنَ الدُّنْيَا. فَقَالُوا:

«نِعْمَ ما أَشارَ بِهِ الأَميرُ».

ومَا لَبِثُوا أَنْ أَتَمُّوا صُنْعَ السُّلَّمِ الكَبِيرِ، ثُمَّ تَعاوَنُوا عَلَى رَفْعِهِ حَتَّى أَقَامُوهُ وَأَلْصَقُوهُ بِالسُّورِ الْعَالِيَ، فَجَاءَ مُسَاوِيًا لَهُ، كَأَنَّهُ قَدْ عُمِلَ عَلَى قَدِّهِ وَارْتِفاعِهِ.

٦ـ السَّبَّاقُونَ إِلَى المَوْتِ

فَشَكَرَ لَهُمُ الأَمِيرُ جُهُودَهُمْ وَتَوْفِيقَهُمْ، وَقَالَ:

«بارَكَ اللهُ فِيكُمْ. لَقَدْ كَلَّلَ اللهُ مَسْعاكُمْ بِالنَّجَاحِ، فَكَأَنَّما قِسْتُمُ السُّلَّمَ عَلَى ارْتِفاعِ سُورِ المَدِينَةِ».

ثُمَّ سَأَلَهُمْ:

«أَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَقِيَ هَذا السُّلَّمَ الْعَالِيَ حَتَّى يَبْلُغَ ذِرْوَةَ السُّورِ،

ثُمَّ يَحْتالَ لِنُزُولِهِ إِلَى أَرْضِ المَدِينَةِ لِيَفْتَحَ لنَا مَغالِيقَ هَذَا الْبَابِ؟».

فَقالَ أَحَدُهُمْ، وَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى الظَّفَرِ بِتَحْقِيقِ رَغْبَةِ الأَمِيرِ:

«أَنَا أَصْعَدُ عَلَيْهِ ـ أَيُّهَا الأَمِيرُ ـ وَأَتَكَفَّلُ بِفَتْحِ أَبْوَابِ المَدِينَةِ».

فَقالَ الأَمِيرُ «إِقْبالٌ»:

«اصْعَدْ. بَارَكَ اللهُ فِيكَ».

فَصَعِدَ الفَارِسُ أَدْراجَ السُّلَّمِ حتَّى وَصَلَ إِلَى أَعْلَاهُ. وَمَا كَادَ يَرْتَقِي سُورَ المَدِينَةِ، وَتَثْبُتُ عَلَيْهِ قَدَماهُ، حتَّى شَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى المَدِينَةِ، وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

«لَبَّيْكِ. لَبَّيْكِ، لَبَّيْكِ. هَأَنَذا حاضِرٌ إِلَيْكِ، مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْكِ».

ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى داخِلِ المَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ الْعُلُوِّ الشَّاهِقِ، فَدُقَّتْ عُنُقُهُ، وَانْهَرَسَ لَحْمُهُ وَعَظْمُهُ!!

فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبالٌ»:

«إِذَا كَانَ هذَا فِعْلَ العاقِلِ، فَمَاذَا يَصْنَعُ المَجْنُونُ؟! أَما وَاللهِ لَيَفْنَيَنَّ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا إِذا اقْتَدَوْا بِفِعْلِ هذا الرَّائِدِ الأَحْمَقِ. ارْجِعُوا، فَلا حَاجَةَ بِنَا لِدُخُولِ هَذِهِ المَدِينَةِ المَسْحُورَةِ، وَلَا خَيْرَ فى البَقاءِ هُنَا حتَّى لَا نُعَرِّضَ أَصْحَابَنا لِلرَّدَى، وَلَا نُلْقِيَ بِهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ».

فَقَالَ فارِسٌ جَرِيءٌ:

«أَتِحْ لِىَ ـ يَا مَوْلاىَ ـ فُرْصَةً مَاجِدَةً؛ لَعَلِّى أَثْبَتُ قَلْبًا مِنْ صاحِبِى، وَأَرْجَحُ عَقْلًا. فَإِنَّ نَفْسِى تُحَدِّثُنِى أَنَّنِى قَادِرٌ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ هذِهِ المَدِينَةِ مَتَى أَذِنَ لى الأَمِيرُ».

فَقَالَ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»:

«أَخْشَى أَنْ يَنَالَكَ ما نالَ صَاحِبَكَ».

ثُمَّ أَذِنَ لَهُ. وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ عَلَى السُّورِ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الخَبَلِ مِثْلُ مَا ظَهَرَ عَلَى صَاحِبِهِ؛ فَصَفَّقَ بِكَفَّيْهِ، وَصَاحَ صَيْحَةَ رَفِيقِهِ الأَوَّلِ:

«لَبَّيْكِ. لَبَّيْكِ، لَبَّيْكِ. هَأنذا حاضِرٌ إِلَيْكِ، ومَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْكِ».

ثُمَّ قَذَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى أَرْضِ المَدِينَةِ، فَاخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ مِنْ فَوْرِهِ!

فَلَمْ يَثْنِ مَصْرَعُهُما مِنْ عَزْمِ إِخْوَانِهِمَا عَنْ مُتَابَعَتِهِمَا، وَتَهَافَتُوا واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، يُلْحِفُونَ فى إِنْجَازِ ما عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ، وَكُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَقْدَرُ مِمَّنْ سَبَقَهُ، وَأَجْدَرُ بِالْفَوْزِ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى هَلَكَ مِنْهُمْ جُمْهُورٌ كَبِيرٌ! وَلَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى السُّورِ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا لَبِثَهُ غَيْرُهُ، ثُمَّ يَلْقَى مَصْرَعَهُ مِنْ فَوْرِهِ.

٧ـ قَائِدُ الْجَيْشِ

فَانْبَرَى قائِدُ الْجَيْشِ قَائِلًا:

«مَا لِهَذا الأَمْرِ غَيْرِى أَيُّهَا الأَمِيرُ. وَلَنْ تَرَى مِنِّى ـ إِنْ شاءَ اللهُ ـ غَيْرَ مَا يَسُرُّكَ».

فَقَالَ لَهُ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ»، وَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْجَزَعُ:

«هَيْهَاتَ أَنْ آذَنَ لَكَ بِذَلِكَ. كَلَّا، لَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ الجَرِيئَةِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ لَكَ عاقِبَتُها. وَأَنْتَ قَائِدُ الجَيْشِ وَمُرْشِدُهُ، وَلَنْ يُطاوِعَنِى قَلْبِى عَلَى أَنْ أُعَرِّضَكَ لِلْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتَ مَصارِعَ ثَلاثَةَ عَشَرَ مِنْ أَشْجَعِ فُرْسَانِنَا الْمُدَرَّبِينَ».

وَطَالَ الحِوارُ وَالجَدَلُ بَيْنَ الأَمِيرِ وَقَائِدِ الجَيْشِ، ثُمَّ انْتَهَى رَأْىُ الأَمِيرِ إِلَى إِجَابَةِ القَائِدِ؛ ثِقَةً بِحَزامَةِ أَمْرِهِ، وَرَجاحَةِ عَقْلِهِ، وَرَباطَةِ جَأْشِهِ.

وَارْتَقَى الْقَائِدُ السُّلَّمَ، وَقَلْبُهُ مُمْتَلِئٌ يَقِينًا وَإِيمانًا بِنَجاحِ مَسْعَاهُ؛ حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى السُّورِ. وَمَا كَادَ يَفْعَلُ حَتَّى شَخَصَ بِبَصَرِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ الاضْطِرابِ، وَصَاحَ كَمَا صَاحَ أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ:

«لَبَّيْكِ. لَبَّيْكِ، لَبَّيْكِ. هأَنَذا حَاضِرٌ إِلَيْكِ، وَمَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْكِ».

ثُمَّ قَذَفَ بِنَفْسِهِ مِنْ فَوْقِ السُّورِ، وَهَوَى إِلَى الأَرْضِ كَمَا هَوَى أَصْحَابُهُ مِنْ قَبْلُ!!

الفَصْلُ الثَّانِي

١ـ فَاتِحُ المَدِينَةِ

فَلَمَّا رَأَى الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ» مَصارِعَ أَتْباعِهِ، وَهَلَاكَ قائِدِ جَيْشِهِ؛ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُقْلِعُوا عَنْ مُحاوَلَتِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ:

«مَا لِهذا الأَمْرِ غَيْرِى».

فَارْتَاعَ أَصْحابُ الأَمِيرِ وَجَزِعُوا، وَتَفَزَّعُوا مِمَّا سَمِعُوا، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ ضَارِعِينَ أَنْ يَكُفَّ عَنْ هَذِهِ الْمُخَاطَرَةِ، وَقَالُوا لَهُ مُسْتَعْطِفِينَ:

«تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الأَمِيرُ، فَإِنَّ حَيَاتَنَا رَهْنٌ بِحَياتِكَ، وَلا سَبِيلَ لَنَا إِلَى البَقاءِ بَعْدَكَ، فَأَنْتَ دَلِيلُنا وَرائِدُنَا، وَهَادِينَا وَمُرْشِدُنَا».

فَقَالَ الأَمِيرُ:

«لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أُدْرِكَ هذِهِ الغَايَةَ أَوْ أَهْلِكَ دُونَها، وَلَنْ يَثْنِيَنِى عَنْ بُلُوغِهَا شَىْءٌ إِنْ شَاءَ اللهُ».

فَلَمَّا رَأَوْا إِصْرَارَ الأَمِيرِ عَلَى عَزْمِهِ، وَعَجْزَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ إِرَادَتِهِ، كَفُّوا عَنْ إِلْحافِهِمْ، وَاتَّجَهُوا إِلَى اللهِ بِدُعَائِهِمْ وَرَجَائِهِمْ.

وَارْتَقَى الأَمِيرُ دَرَجاتِ السُّلَّمِ العالى حَتَّى بَلَغَ ذِرْوَتَهُ. وَمَا كَادَ يَسْتَقِرُّ عَلَى سُورِ المَدِينَةِ حَتَّى اسْتَخَفَّهُ الفَرَحُ، فَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ إِعْجَابًا،

وَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى الفَضَاءِ مُتَأَمِّلًا! فَجَزِعَ أَصْحَابُهُ مِمَّا رَأَوْا، وَتَوَهَّمُوا أَنَّ أَمِيرَهُمْ سَيَلْحَقُ بِمَنْ سَبَقَهُ مِنَ الهَالِكِينَ، وَحَسِبُوا أَنَّهُ قَاذِفٌ بِنَفْسِهِ مِنْ أَعْلَى السُّورِ الشَّاهِقِ. فَتَعَالَى صُرَاخُهُمْ، وَانْطَلَقُوا يَصِيحُونَ مَذْعُورِينَ:

«رُحْمَاكَ اللَّهُمَّ رُحْمَاكَ! تَرَفَّقْ بِنَا أَيُّهَا الأَمِيرُ، وَلَا تُلْقِ بِنَفْسِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛ فَنُصْبِحَ بَعْدَكَ مِنَ الْهَالِكِينَ».

وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ، وَتَغَلَّبَتِ الْحِكْمَةُ عَلَى الطَّيْشِ، وَانْتَصَرَ العَقْلُ عَلَى السِّحْرِ. فَجَلَسَ الأَمِيرُ سَاعَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ نَهَضَ وَقَالَ لأَصْحَابِهِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِى لَهْجَةِ الْوَاثِقِ، الثَّابِتِ العَزْمِ:

«لا تَخَافُوا عَلَيَّ، وَلَا تَهِنْ عَزَائِمُكُمْ أَيُّهَا الرِّفَاقُ، وَلَنْ تَرَوْا إِلَّا مَا يَسُرُّكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَقَدْ صَرَفَ اللهُ عَنِّى كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَمَكْرَهُ».

وَجَلَسَ الأَمِيرُ قَلِيلًا يُفَكِّرُ فِى فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ نَهَضَ قَائِمًا.

٢ـ الْجَوارِى الْعَشْرُ

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ: أَتَعْرِفُ مَاذَا رَأَى الأَمِيرُ حِينَ وَقَفَ عَلَى سُورِ المَدِينَةِ؟

لَقَدْ شَهِدَ مَا لَمْ يَشْهَدْهُ إِنْسَانٌ، وَرَأَى أَعْجَبَ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَانِ، وَسَمِعَ أَغْرَبَ مَا سَمِعَتْهُ أُذُنَانِ! رَأَى عَشْرَ جَوارٍ، كَأَنَّهُنَّ الأَقْمارُ، يُشِرْنَ بِأَيْدِيهِنَّ إِلَيْهِ، وَيُنادِينَهُ قَائِلاتٍ:

«تَعالَ إِلَيْنَا أَيُّهَا الأَمِيرُ العَظِيمُ!».

وَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ تَحْتَهُ بَحْرًا مِنَ الْمَاءِ دَانِيًا مِنْهُ (قَرِيبًا)، فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ مَنْ سَبَقَهُ، فَرَأَى أَصْحَابَهُ صَرْعَى. فَثَابَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ، وَأَدْرَكَ أَنَّ مَا يَراهُ خِداعُ سَاحِرٍ، فَاسْتَمْسَكَ، وَاعْتَصَمَ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يُلْقِ بِنَفْسِهِ.

وَهَكَذا رَدَّ اللهُ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفِتْنَتَهُ، وَتَجَلَّى لَهُ أَنَّ مَا رَآهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَكِيدَةً دَبَّرَهَا سَاحِرٌ بَارِعٌ؛ لِيَرُدَّ عَنِ الْمَدِينَةِ كُلَّ مَنْ يُحَاوِلُ اقْتِحامَهَا، وَيَرُومُ الوُصُولَ إِلَيْهَا. وَهَكَذا رُفِعَتِ الغِشَاوَةُ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَتَكَشَّفَ لَهُ هَوْلُ مَا كَانَ مُقْدِمًا عَلَيْهِ، وَزَالَ عَنْهُ كَيْدُ الكَائِدِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ عَلَى مَا أَنارَ لَهُ مِنْ طَرِيقٍ، وَيَسَّرَ لَهُ مِنْ رُشْدٍ وَتَوْفِيقٍ؛ فَقَدْ شَاءَتْ رَحْمَتُه بِالأَمِيرِ أَنْ يُبَصِّرَهُ بِمَوْقِعِ الْخَطَرِ، فَاعْتَبَرَ بِمَصْرَعِ أَصْحَابِهِ.

وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ وُعِظَ بِنَفْسِهِ!

٣. الطِّلَّسْمُ

وَمَشَى الأَمِيرُ عَلَى السُّورِ بِضْعَ خُطُواتٍ، فَرَأَى بُرْجًا عَالِيًا مِنَ النُّحَاسِ، لَهُ بَابٌ مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ (الخَالِصِ)، مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعَيْه. وَحَانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ، فَرَأَى فى وَسْطِ الْبَابِ صُورَةَ فارِسٍ مِنْ نُحَاسٍ، لَهُ كَفٌّ مَمْدُودَةٌ كَأَنَّما تُشِيرُ إِلَى لَوْحٍ مَكْتُوبٍ. فَقَرَأَهُ الأَمِيرُ؛ فَإِذَا فِيهِ :

«مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ العَظِيمُ. مَرْحَبًا بِكَ يَا مُخَلِّصَ مَدِينَةِ النُّحَاسِ، وَوَاهِبَ الحُرِّيَّةِ لِمَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ.

تَأَمَّلِ الزُّنْبُرُكَ الَّذِى تَراهُ فى صَدْرِ الفَارِسِ، وَأَدِرْهُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ دَوْرَةً، ثُمَّ افْرُكِ المِسْمَارَ اللَّوْلَبِىَّ الَّذِى بِجَانِبِهِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ مَرَّةً».

٤. مَفَاتِيحُ المَدِينَةِ

فَتَعَجَّبَ الأَمِيرُ مِمَّا رَأَى. وَمَا إِنْ أَتَمَّ قِراءَةَ وَصِيَّةِ الطِّلَّسْمِ حَتَّى انْفتَحَ أَمَامَهُ بابٌ صَغِيرٌ فى الْحَالِ، سُمِعَ لَهُ صَوْتٌ خَافِتٌ، فَدَخَلَ مِنْهُ سَالِكًا دِهْلِيزًا طَوِيلًا، انْتَهى بِهِ إِلَى سُلَّمٍ نُحَاسِىٍّ صَغِيرِ الدَّرَجِ، فَهَبَطَ

مِنْهُ بِضْعَ دَرَكاتٍ، فَرَأَى رَدْهَةً اصْطَفَّتْ فِيهَا الأَرائِكُ، يَجْلِسُ عَلَيْهَا حُرَّاسٌ أَشِدَّاءُ أَقْوِياءُ كَامِلُو العَتادِ، فِى أَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ المُرْهَفَةُ، وَالقِسِيُّ المُوَتَّرَةُ، وَالسِّهامُ المُفَوَّقَةُ. فَابْتَدَأَهُمْ بِالتَّحِيَّةِ والسَّلامِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ! فَحَسِبَهُمْ نَائِمِينَ، وقالَ فى نَفْسِهِ:

«لَعَلَّ مَفَاتِيحَ المَدِينَةِ عِنْدَ هَؤُلاءِ!».

ثُمَّ أَدَارَ لِحاظَهُ، فَرَأَى رَجُلًا مَهِيبَ الطَّلْعَةِ، رَائِعَ السَّمْتِ، بَادِيَ الفُتُوَّةِ، شَدِيدَ البَأْسِ وَالقُوَّةِ، وَهُوَ عَلَى أَرِيكَةٍ عَالِيَةٍ. فَقالَ الأَمِيرُ:

«لَعَلَّ هَذَا صَاحِبُ مَفَاتِيحِ المَدِينَةِ».

وَحَيَّاه، فَلَمْ يُجِبْهُ!!

وَحَانَتْ مِنْهُ التِفَاتَةٌ، فَرَأَى عَلَى قَيْدِ (مَسافَةِ) خُطُواتٍ مِنْهُ أَرِيكَةً عَلَيْهَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، وَفى ذِراعِهِ سِلْسِلَةٌ مِنَ النُّحَاسِ الأَصْفَرِ، فِيهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِفْتاحًا. فَعرَفَ أَنَّهُ بَوَّابُ المَدِينَةِ. فَدَنَا مِنْهُ الأَمِيرُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ! فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثَانِيَةً وثَالِثَةً، فَلَمْ يُجِبْ بِشَىءٍ!! فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ وَقَالَ مُتَعَجِّبًا:

«مَا بالى لَا أَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ رَدَّ تَحِيَّتِى! أَنائِمٌ أَنْتَ كَأَصْحابِكَ أَمْ أَصَمُّ؟».

فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَىْءٍ وَلَمْ يَتَحَرَّكْ. فَتأَمَّلَهُ الأَمِيرُ فَاحِصًا؛ فَإِذا هُوَ تِمْثَالٌ مِنَ النُّحَاسِ لاحَراكَ بِهِ!!

فَقَالَ الأَمِيرُ:

«هَـذَا أَعْجَـبُ مَا رَأَيْتُ. إِنَّـهُ تِمْثَالٌ رَائِـعُ الصُّنْعِ لِإِنْسَـانٍ يَنْبِضُ بِالْحَياةِ، وَلَا يُعْوِزُهُ غَيْرُ النُّطْقِ. ومَا أَظُنُّ أَصْحابَهُ إِلَّا كَذلِكَ».

ثُـمَّ أَخَذَ المَفَاتِيـحَ مُيَمِّمًا بَـابَ المَدِينَـةِ، وَفَتَحَ الأَقْفـالَ، وَرَفَعَ المَزالِيجَ، وَأَزاحَ المَتارِيـسَ، وَجَذَبَ البَابَ جَذْبَةً قَوِيَّةً، فانْفَتَحَ فى جَلَبَةٍ وَقَعْقَعةٍ.

فَفَـرِحَ جُنُـودُهُ بِنَجاحِهِ، وَتَعَالَتْ صَيْحَـاتُ الإِعْجابِ والإِكْبارِ، وَالْفَـرَحِ وَالاسْتِبْشَـارِ بِمَا ظَفِرَ بِهِ الأَمِيرُ مِنْ فَـوْزٍ كَبِيرٍ، حَامِدِينَ اللهَ عَلَى نَجَاحِ مَسْعَاهُ.

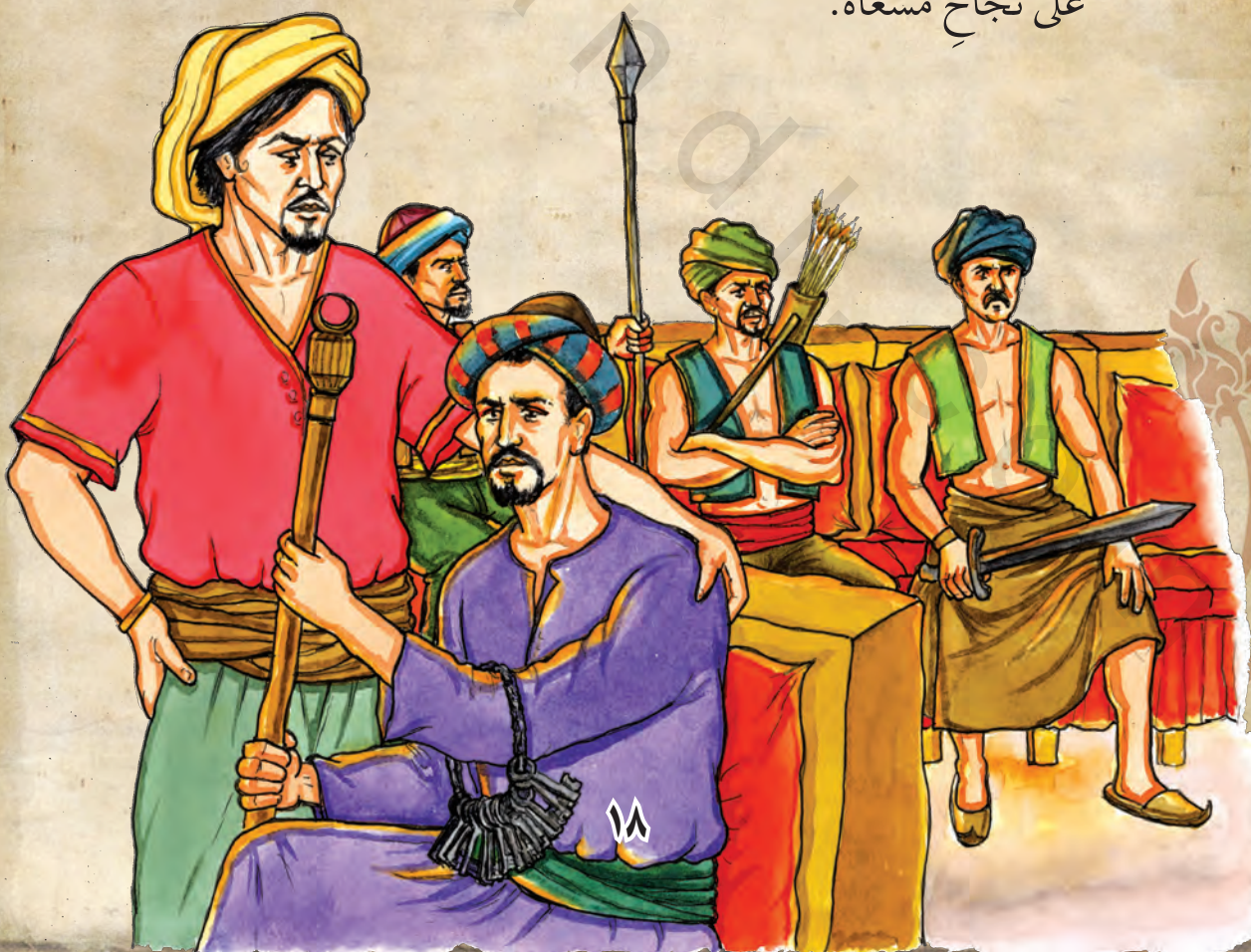

الفَصْلُ الثَّالِثُ

١ ـ بَيْنَ الْجَيْشِ وَأَمِيرِهِ

وَخَشِيَ الأَمِيرُ أَنْ يَتَعَرَّضَ جَيْشُهُ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هذِهِ الْمَدِينَةِ الْمَسْحُورَةَ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِهَا؛ فَأَمَرَ جَيْشَهُ بِالْبَقَاءِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ حَتَّى يَرْتَادَ أَسْوَاقَها، وَيَتَعَرَّفَ خَباياها وَأَسْرارَها. فَإِذَا اطْمَأَنَّ عَلَى سَلَامَةِ جَيْشِهِ؛ أَذِنَ لَهُ فِى الدُّخُولِ. وَخَشِيَ أَصْحَابُ الأَمِيرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُهُمْ لِلْخَطَرِ إِذَا دَخَلَ هذِهِ الْمَدِينَةَ الْمَسْحُورَةَ، وَضَاعَفَ مِنْ خَوْفِهِمْ عَلَيْهِ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ مَصارِعِ إِخْوَانِهِمْ، وَقَائِدِهِمْ. فَراحُوا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ مُحَاوَلَتِهِ، وَأَن يَأْذَنَ لَهُمْ ـ أَوْ لِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ ـ فِى ارْتِيَادِ الْمَدِينَةِ قَبْلَهُ؛ لِيُجَنِّبَهُ الأَخْطارَ. وَلَكِنَّ الأَمِيرَ أَصَرَّ عَلَى رَأْيِهِ، وأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ رَجَائِهِمْ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يَفْدِيَ جَيْشَهُ بِنَفْسِهِ؛ فَلَمْ يَسَعْهُمْ غَيْرُ الْخُضُوعِ لِرَأْيِهِ.

٢ ـ فِى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ

وَمَشَى الأَمِيرُ فِى طُرُقَاتِ المَدِينَةِ بِضْعَ خُطُواتٍ، فَرَأَى رَجُلًا وَاقِفًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ويَمُدُّ يَدَهُ بِالتَّحِيَّةِ فِى بَشَاشَةٍ وَلُطْفٍ؛

فَأَسْرَعَ الأَمِيرُ إلى تَحِيَّتِهِ، وَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ، فَوَجَدَهُ جَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ. وَتَأَمَّلَهُ فَإِذَا هُوَ تِمْثَالٌ مِنَ النُّحَاسِ!

وَمَشَى الأَمِيرُ خُطُواتٍ قَلِيلَةً، فَرَأَى جَمَاعَةً يَتَشَاجَرُونَ، وَقَدْ أَمْسَكَ بَعْضُهُمْ بِتَلابِيبِ رَجُلٍ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِمْ، لِيُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ، فَوَجَدَهُمْ جَمِيعًا تَمَاثِيلَ جَامِدَةً!

ثُمَّ مَشَى فِى الْمَدِينَةِ بِضْعَ خُطُوَاتٍ، فَرَأَى رَجُلًا وَاقِفًا فِى عَرْضِ الطَّرِيقِ، فَدَنَا مِنْهُ لِيَتَأَمَّلَهُ، فَإِذَا هُوَ تِمْثَالٌ لَا حَرَاكَ بِهِ!

فَاشْتَدَّ بِالأَمِيرِ الْعَجَبُ، وَاسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ فِى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى كُلَّ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ عَيْنَاهُ لَا يَنْطِقُونَ وَلا يَتَحَرَّكونَ، وَقَابَلَ عَجُوزًا عَلَى رَأْسِها أَثْوَابٌ اشْتَرَتْها مِنْ دُكَّانِ ثَوَّابٍ، فَدَنَا مِنْهَا، وَتَأَمَّلَهَا، فَلَمْ يَرَ أَمَامَه غَيْرَ تِمْثَالٍ! وَرَأَى جَمْهَرَةً مِنْ نِسَاءٍ وَصِبْيانٍ وَأَطْفَالٍ، وَشَبَابٍ وَكُهُولٍ، وَصَبَايَا وَعَجَائِزَ لَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَحَرَّكُ أَوْ يَتَكَلَّمُ، فَهُمْ تَمَاثِيلُ لَا تُشِيرُ بِطَرْفٍ (بِعَيْنٍ)، ولَا تَنْطِقُ بِحَرْفٍ!!

٣ـ أَسْوَاقُ الْمَدِينَةِ

وَاسْتَأْنَفَ الأَمِيرُ سَيْرَهُ، فَوَجَدَ أَسْوَاقًا أَرْبَعًا، فَدَخَلَهَا ـ وَاحِدَةً بَعْدَ الأُخْرَى ـ فَوَجَدَ كُلَّ مَنْ فِيهَا مِنْ حَيَوانٍ وَنَاسٍ تَمَاثِيلَ مَصْبُوبَةً

مِنَ النُّحاسِ.

هَذِهِ دَكاكِينُ الصُّنَّاعِ وَالتُّجَّارِ مَفْتُوحَةَ الأَبْوَابِ، مَعْرُوضَةَ السِّلَعِ، مَصْفُوفَةَ الْبَضَائِعِ، مُعَلَّقَةَ الْمَوازِينِ، أَصْحابُهَا وَزائِرُوهَا تَماثِيلُ لَا تَعِي وَلَا تَنْطِقُ!!

هَذَا حَدَّادٌ فَارِعُ الطُّولِ، مَفْتُولُ السَّاعِدَيْنِ، يَفِيضُ نَشَاطًا وَقُوَّةً، وَقَدْ رَفَعَ مِطْرَقَتَهُ لِيَهْوِيَ بِهَا عَلَى السَّنْدَانِ، فَبَقِيَتْ ذِرَاعُهُ مَمْدُودَةً، وَمِطْرَقَتُهُ مُعَلَّقَةً فِي الفَضَاءِ، وأَمَامَه صَبِيُّهُ نَافِخُ الكِيرِ، جَامِدٌ كَمُعَلِّمِه.

وهَذَا نَجّارٌ يَشُقُّ لَوْحًا كَبِيرًا بِمِنْشارِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مُنْتَصَفَهُ، وَوَقَفَ حَيْثُ هُوَ لَا حَرَاكَ بِهِ.

وَذَاكَ زَيّاتٌ نَصَبَ مِيزَانَهُ، وَأَمَامَهُ البَضائِعُ مِنْ جُبْنٍ وَزَيْتُونٍ، ومَا إِلَى ذَلِكَ، هَامِدًا لَا يَتَحَرَّكُ. وَهَذَا تَيَّانٌ يَبِيعُ التِّينَ، وتَمَّارٌ يَبِيعُ التَّمْرَ (الْبَلَحَ)، وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا فَاكِهَانِيٌّ يَبِيعُ الْفَاكِهَةَ، يَلِيهِ دَقِيقِيٌّ يَبِيعُ الدَّقِيقَ.

وَمَشى خُطُواتٍ قَلِيلَةً فَرَأَى جَدَّالًا يَبِيعُ الطُّيُورَ، وَجَزَّارًا يَبِيعُ اللَّحْمَ، ورَءَّاسًا يَبِيعُ الرُّؤُوسَ، وَسَمَّانًا يَبِيعُ السَّمْنَ، وَدَهَّانًا يَبِيعُ الدُّهْنَ، وَبَيَّاضًا يَبِيعُ الْبَيْضَ، وجَبَّانًا يَبِيعُ الْجُبْنَ، وَعَسَّالًا يَبِيعُ الْعَسَلَ، وَخَبَّازًا يَبِيعُ الْخُبْزَ.

ثُمَّ سَارَ الأَمِيرُ إِلى سُوقٍ ثَانِيَةٍ، فَرَأَى دَكَاكِينَ الْبَزّازِينَ والثَّوَّابِينَ مَمْلُوءَةً بِأَنْوَاعِ الثِّيابِ مِنَ الْقُطْنِ وَالكَتَّانِ، والْخَزِّ والْحَرِيرِ، وَالدِّيباجِ الْمَنْسُوجِ بِالذَّهَبِ الأَحْمَرِ والْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، ومَا إِلَيْهَا مِنْ مُخْتَلِفِ الثِّيَابِ.

وَرَأَى الْفَرَّائِينَ يَبِيعُونَ الْفِرَاءَ، وَالْوَشَّائِينَ يَعْمَلُونَ الْوَشْيَ، وَالرَّفَّائِينَ يَرْفَأُونَ الثِّيَابَ، وَالْهَدَّابِينَ يَفْتِلُونَ الْخَيْطَ، والنَّجّادِينَ يَخِيطُونَ الْفُرُشَ وَالْوَسَائِدَ، والكَوّائِينَ يَكْوُون الثِّيَابَ، وَالأَبَّارِينَ يَصْنَعُونَ الإِبَرَ، والنَّسّاجِينَ يَنْسُجُونَ الثِّيَابَ، وَالْحَذَّائِينَ يَصْنَعُونَ الأَحْذِيَةَ، وَإِلَى جَانِبِهِمْ طَائِفَةٌ مِنَ الصَّبَّاغِينَ وَالدَّبَّاغِينَ.

ثُمَّ انْتَقَلَ الأَمِيرُ إِلى سُوقٍ ثَالِثَةٍ، فَرَأَى جَمَاعَةً مِنَ الصَّيَّاغِ وَتُجّارِ اللُّؤْلُؤِ وَأَمَامَهُمْ نَفَائِسُ الأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ كالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ وَالْمَرْجانِ (صِغارِ اللُّؤْلُؤِ)، وَكُلُّهُمْ ـ بَيْنَ وَاقِفٍ وَجَالِسٍ ـ سَاكِنٌ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَنْطِقُ.

وَرَأَى الزَّجّاجِينَ يَصْنَعُونَ الزُّجَاجَ، والْخَزَّافِينَ يَبِيعُونَ الْخَزَفَ، وَالْفَخَّارِينَ يَصْنَعُونَ أَوَانِيَ الْفَخَّارِ، والْجَلّائِينَ يَجْلُونَ الآنِيَةَ، وَالْعَوَّاجِينَ يَبِيعُونَ الْعَاجَ، والسَّكَّاكِينَ يَعْرِضُونَ السَّكَاكِينَ، وَالشَّعَّابِينَ يُصْلِحُونَ مَا تَصَدَّعَ مِنَ الأَوَانِي.

وَمَشَى خُطُوَاتٍ قَلِيلَةً فَرَأَى صَيْدَلِيًّا يَبِيعُ الأَدْوِيَةَ، وَإِلَى جِوَارِهِ مُجَبِّرًا يَجْبُرُ الْعِظَامَ الْمَكْسُورَةَ، وَانْتَهَى بِهِ الْمَطَافُ إِلى السُّوقِ الرّابِعَةِ حَيْثُ وَجَدَ النَّخَّاسِينَ يَبِيعُونَ الدَّوابَّ: فَهَذَا مَعَّازٌ يَصْحَبُ مَعِيزَهُ، وَذَاكَ كَلَّابٌ مَعَهُ كِلَابُهُ، ومِنْ بَعْدِهما شَائِيٌّ يَصْحَبُ شَاءَهُ وَنِعاجَهُ.

وَمَازَالَ الأَمِيرُ يَنْتَقِلُ مِنْ سُوقٍ إِلَى سُوقٍ، وَمِنْ طَرِيقٍ إِلَى طَرِيقٍ، فَلَا يَرَى إِلَّا رَوَائِعَ مِنَ التَّمَاثِيلِ النُّحَاسِيَّةِ، حَيوانِيَّةً وَإِنْسَانِيَّةً.

٤. حَيْرَةُ الأَمِيرِ

شَدّ مَا أَدْهَشَهُ وَحَيَّرَ عَقْلَهُ أَلَّا يَرَى فِى الْمَدِينَةِ كُلِّهَا أَحَدًا مِنَ الأَحْيَاءِ! واعَجَبًا! أَلَيْسَ فِيها مَنْ يَنْطِقُ أَوْ يُجِيبُ؟!

يَا لَغَرَابَةِ مَا يَشْهَدُ! حَتَّى الْكِلابُ والْقِطَطَةُ وَسَائِرُ الطُّيُورِ وَالحَيَوَانِ كُلُّهَا تَمَاثِيلُ هامِدَةٌ مِنَ النُّحَاسِ، فاقِدَةٌ الْحَيَاةَ! يَالَهَوْلِ مَا تَرَاهُ عَيْناهُ! أَكُلُّ مَا فِى الْمَدِينَةِ تماثِيلُ لَا حَرَكَةَ بِهَا وَلَا حِسَّ، لَا يَتَرَدَّدُ بَيْنَ جَنَباتِهَا نَفَسٌ؟!

تُرَى: أَيُّ سَاحِرٍ غَضِبَ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَسَلَّطَ نِقْمَتَهُ عَلَى أَهْلِيهَا، وَمَسَخَ سَاكِنِيهَا؛ فَحَوَّلَ أَجْسَادَ مَنْ فِيهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَاسٍ، تَمَاثِيلَ مُبْدَعَةً مِنَ النُّحَاسِ؛ تُخَيِّلُ لِرَائِيها أَنَّهَا تَنْبِضُ بِالْحَياةِ. وَلَكِنَّ أَصْحابَها لَا يَتَحَرّكُونَ ولَا يَتَكَلَّمُونَ، يُسَائِلُهُمْ فَلا يُجِيبُونَ، ويُحَاوِرُهُمْ فَلا يَنْطِقُونَ؟!

الفَصْلُ الرَّابِعُ

١- فِى القَصْرِ الْمَلَكِىِّ

وَمَازَالَ الأَمِيرُ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى قَصْرٍ عَالِى الْبُنْيانِ، رَائِعِ التَّصاوِيرِ. فَلمَّا دَخَلَهُ رَأَى جَمَاعَةً مِنَ الْجُنْدِ وَالْحَرَسِ يَقِفُونَ عَلَى الأَبْوَابِ، وَخَلْفَهُمْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى جَالِسِينَ عَلَى أَرَائِكَ فَاخِرَةٍ، صُفَّتْ عَلَيْهَا الْوَسَائِدُ الْحَرِيرِيَّةُ، مُوَشَّاةً بِأَجْمَلِ النُّقُوشِ، وَقَدِ ارْتَدَوْا أَبْهَى الثِّيابِ؛ يُخَيَّلُونَ إِلَيْكَ أَنَّ دَمَ الْحَيَاةِ يَجْرِى فى عُرُوقِهِمْ، فَإِذَا دَانَيْتَهُمْ وَجَدْتَهُمْ تَمَاثِيلَ جامِدَةً!!

وَمَشَى فى جَنبَاتِ الْقَصْرِ، فَرَأَى قَاعَةً فَسِيحَةً يَجْلِسُ عَلَيْهَا وُزَرَاءُ الدَّوْلَـةِ وَأُمَرَاؤُهَـا. وَحَانَتْ مِنْـهُ الْتِفَاتَةٌ، فَأَبْصَرَ فى صَـدْرِ الْمَجْلِسِ كُرْسِـيًّا مِنَ الذَّهَـبِ الإِبْرِيزِ مُرَصَّعًا بِأَنْفَسِ الْحِجـارَةِ الْكَرِيمَةِ، وَقَدْ جَلَسَ فِيهِ الْمَلِكُ فى أَفْخَمِ حُلَلِهِ، وَرَأَى عَلَى مَفْرِقِهِ تَاجًا مُكَلَّلًا بِنَفِيسِ الدُّرِّ وَثَمِينِ اللَّآلِئِ، تَشُعُّ مِنْهَا الأَضْوَاءُ، فَتُحِيلُ الظَّلامَ نُورًا.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قَاعَةٍ أُخْرَى، فَرَأَى طَائِفَةً مِنَ الْجَوَارِى وَالْوَصائِفِ، حَوْلَ مَلِيكَتِهِنَّ، لِتَلَقِّى إِشَارَتِهَا، مُتَأَهِّبَاتٍ لِتَنْفِيذِ رَغْبَتِهَا.

وَعَجِبَ الأَمِيرُ مِنْ بَرَاعَةِ الْمُهَنْدِسِينَ، وَافْتِنانِهِمْ فى هَنْدَسَةِ الْقَصْرِ وَنَقْشِـهِ، وَتَنْسِـيقِ أَثَاثِهِ وَفَرْشِـهِ، وَرَوْعَةِ تَصَاوِيرِه، وَسَنا مَصَابِيحِهِ الْبَلُّورِيَّةِ، وَثُرَيَّاتِهِ الْمُتَأَلِّقَةِ بِنَفَائِسَ مِنَ الدُّرِّ الْيَتِيمِ (النَّادِرِ).

٢ ـ حِوارُ الأَمِيرَيْنِ

وَاسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ مُتَنَقِّلًا مِنْ عَجَبٍ إِلَى عَجَبٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَاعَةٍ فَاخِـرَةٍ، فَـرَأَى فَتَاةً جَمِيلَةَ المُحَيَّا، مُشْـرِقَةَ الطَّلْعَةِ ـ تَقْرَأُ فى كِتَابٍ ـ ومَـا إِنْ لَمَحَتْهُ، حَتَّى خَفَّتْ إِلَيْهِ تَسْـتَقْبِلُهُ، وَتَبْتَدِرُهُ بِالتَّحِيَّةِ فى أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، وَتُنادِيه بِاسْـمِهِ مُرَحِّبَةً بِهِ، فَرْحانَةً بِمَقْدَمِهِ. فَاشْتَدَّ عَجَبُ

الأَمِيرِ مِمَّا رَأَى وسَمِعَ، فَقَالَ لهَا مَدْهُوشًا:

«كَيْفَ عَرَفْتِنِى، وَنَادَيْتِنِى بِاسْمِى؟!».

فَقَالَتْ لَهُ مُبْتَسِمَةً:

«لَا تَعْجَبْ مِمَّا تَرَى وَتَسْمَعُ؛ فَأَنَا أَتَرَقَّبُ قُدُومَكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ!».

فَقَالَ لهَا مُتَحَيِّرًا:

«تَتَرَقَّبِينَ قُدُومِى! كَيْفَ؟! وَمَنْ أَنْبَأَكِ عَنِّى؟! وما بَالُ هَذِهِ المَدِينَةِ قَدْ مُسِخَ سَاكِنُوهَا، وَتَحَوَّلَ قَاطِنُوهَا تَمَاثِيلَ مِنَ النُّحَاسِ، وَبَقِيتِ أَنْتِ وَحْدَكِ سَالِمَةً بِنَجْوَةٍ مِمَّا لَحِقَ أَهْلِيها مِنَ الْمَسْخِ؟! أَىَّ أَلْغَازٍ أَرَى وَأَحاجِىَّ؟!».

فَقَالَتْ لَهُ الْفَتَاةُ مُتَلَطِّفَةً:

«هَأَنَذِى أُفْضِى إِلَيْكَ بِمَا تُرِيدُ مِنْ أَنْبَاءٍ إِذَا تَفَضَّلْتَ بِالْجُلُوسِ، وَأَعَرْتَنِى سَمْعَكَ وَانْتِباهَكَ».

فَقَالَ لهَا:

«مَا أَشْوَقَنِى إِلَى تَعَرُّفِ أَسْرَارِ مَا رَأَيْتُ مِنْ أَلْغَازٍ وَمُعَمَّياتٍ!».

٣ـ حَدِيثُ «رَائِعَة»

فَأَنْشَأَتِ الفَتَاةُ تَقُولُ:

«تَسْأَلُنِى مَنْ أَكُونُ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتُ اسْمَكَ، وَتَرَقَّبْتُ قُدُومَكَ؟ وَمَا سِرُّ هَذِهِ المَدِينَةِ؟ وَلِمَاذا مُسِخَ أَهْلُوهَا وَبَقِيتُ وَحْدِى نَاجِيةً مِنَ السِّحْرِ؟

فَاعْلَمْ ـ يَا سَيِّدِى الأَمِيرَ الْجَلِيلَ ـ أَنَّنِى «رَائِعَةُ» بِنْتُ مَلِكِ هَذِهِ المَدِينَةِ، وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ أَبِى وَهُوَ جَالِسٌ فى صَدْرِ دِيوانِهِ، وَأَنْتَ سائِرٌ فى طَرِيقِكَ إِلَىّ، وَقَدْ كَانَ ذائِعَ الصِّيتِ بَيْنَ مُلُوكِ «الْهِنْدِ». وَكَانَ لَنَا جَارٌ اسْمُهُ «مَرْمُوشٌ» يَعْبُدُ الأَصْنَامَ. فَمَرَّ بِحَاضِرَةِ مُلْكِهِ ـ ذَاتَ يَوْمٍ ـ نَاسِكٌ مِنْ كِبارِ النُّسَّاكِ المَعْرُوفِينَ بِالقَناعَةِ وَالزُّهْدِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ وَسَعَةِ العِلْمِ، فَلَمْ يُقَصِّرْ فى إِرْشَادِ النَّاسِ وتَنْوِيرِ بَصائِرِهِمْ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فى دَعْوَتِهِمْ إِلى عِبادَةِ خالِقِ الكائِناتِ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْ عِبادَةِ الأَصْنامِ الَّتِى لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا. فَالْتَفَّ حَوْلَهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ المُرِيدُونَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عُرِفَ أَمْرُهُ، وَذَاعَ صِيتُهُ، حَتَّى وَصَلَ إِلى سَمْعِ الْمَلِكِ، فَأَمَرَ بِاسْتِدْعائِهِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، سَأَلَهُ عَمَّا نَمَى إِلَيْهِ. فَلَمْ يَكْتُمْهُ النَّاسِكُ

شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَتَلَطَّفُ فى دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَالإِقْلَاعِ عَنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ.

فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَتَعَجَّبَ مِنْ جُرْأَةِ النَّاسِكِ، وَتَوَعَّدَهُ بِالعِقَابِ إِذا لَمْ يَكُفَّ عَنْ هَذَيَانِه، وَيُقْلِعْ عَنْ عِنادِهِ. فَلَمْ يَسْتَجِبِ النَّاسِكُ لِوَعِيدِهِ، وَلَمْ يُبَالِ بِتَهْدِيدِهِ.

فَاشْتَدَّ غَضَبُ «مَرْمُوشٍ» عَلَيْهِ، وَأَمَرَ بِسِجْنِهِ، وَإِعْدَادِ العُدَّةِ لِإِحْرَاقِهِ حَيًّا! وَهيَّأَ لَهُ نَارًا جَاحِمَةً وَسْطَ الْمَيْدَانِ الكَبِيرِ، لِيَشْهَدَ النَّاسُ جَزَاءَهُ عَلَى مَا أَبْدَاهُ مِنْ صِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ فى دَعْوَتِهِ. وَذَاعَتْ قِصَّةُ النَّاسِكِ فى أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِيَرَوْا مَصْرَعَهُ. فَلَمَّا سُعِّرَتِ النَّارُ وتَهيَّأَ الْجُنْدُ، وَاسْتَعَدُّوا لإِلْقَاءِ النَّاسِكِ فى أَتُّونِها الْمُلْتَهِبِ، غامَتِ السَّماءُ فَجْأَةً، وَبَرَقَ البَرْقُ، وَجَلْجَلَ الرَّعْدُ، ثُمَّ هَمَتِ الأَمْطَارُ سيولًا، فَأَطْفَأَتِ النَّارَ، وَسَادَ الهَرْجُ وَالمَرْجُ، وَتَدَافَعَ النَّاسُ إِلى بُيُوتِهِمْ حَتَّى لَا تُغْرِقَهُمُ السُّيُولُ الْمُتَدَفِّقَةُ. وَهَكَذَا أُتِيحَتِ الفُرْصَةُ لِلنَّاسِكِ الصَّالِحِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنَ الفِرَارِ.

وَبَعْدَ ساعاتٍ صَحَا الْجَوُّ وانْقَشَعَ الْمَطَرُ، وَبَحَثَ الْجُنُودُ عَنِ النَّاسِكِ، فَلَمْ يَعْثُرُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ. وَمَشَى النَّاسِكُ فى طَرِيقِهِ إِلَى بِلادِ «التُّبَّتِ» يُواصِلُ السَّيْرَ لَيْلَ نَهارَ حتَّى بَلَغَ مَدِينَتَنا. وَكَانَ أَبى يَسْمَعُ

بِصَلاحِهِ، وَيَعْجَبُ بِتَقْوَاهُ. فَلَمّا أَفْضَى إِلى أَبِى بِقِصَّتِهِ، اسْتَقْبَلَهُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ. فَلَبِثَ النَّاسِكُ عِنْدَنا أَيَّامًا قَلائِلَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أَبى فى استِئْنَافِ السَّفَرِ عائِدًا إِلَى بَلَدِهِ.

فَتَشَبَّثَ بِهِ أَبِى، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فى الْبَقَاءِ عِنْدَهُ، فَتَلَطَّفَ النَّاسِكُ فى الاعْتِذَارِ إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ يُلْحِفُ فى الرّجاءِ، حتَّى أَذِنَ لَهُ أَبى فى السَّفَرِ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُ. وكأَنّما خَشِىَ النَّاسِكُ أَنْ تَهْتَدِىَ إِلى مَكانِهِ عُيُونُ الْمَلِكِ «مَرْمُوشٍ»، فَيَشْتَبِكَ كِلاهُما فى حَرْبٍ طَاحِنَةٍ مِنْ جَرَّائِه. وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا خَشِيَهُ النَّاسِكُ. فَلَمْ يَنْقَضِ عَلَى سَفَرِهِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى وَفَدَ عَلَى أَبِى رَسُولٌ مِنْ «مَرْمُوشٍ» عَابِدِ الأَصْنَامِ، يَتَوَعَّدُهُ فِيهِ بِالْحَرْبِ إِذا لَمْ يُسَلِّمْ إِلَيْهِ النَّاسِكَ الَّذِى حَلَّ بِمَدِينَتِهِ ضَيْفًا! وَغَضِبَ أَبِى مِنْ جُرْأَةِ جارِه، وَطَرَدَ رَسُولَهُ شَرَّ طَرْدَةٍ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَ مَلِيكَهُ أَنَّ النَّاسِكَ قَدْ سَافَرَ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَأَنَّهُ لَوْ بَقِىَ عِنْدَهُ لَمَا قَبِلَ أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَيْهِ.

وكانَ أَبِى يَعْرِفُ قُوَّةَ «مَرْمُوشٍ» وَشِدَّةَ بَأْسِهِ. فَأَعَدَّ لِلِقَائِه عُدَّتَهُ، وَحَصَّنَ مَدِينَتَهُ، وغَلَّقَ أَبْوَابَها الْعَالِيَةَ، وَأَعَدَّ العُدَّةَ لِرَدِّ عُدْوَانِ الغُزاةِ. وَذَا صَبَاحٍ، سَمِعْتُ صَوْتَ بُوقٍ عَالِيًا يُدَوِّى فى الفَضاءِ، فَيَكادُ يُصِمُّ الآذانَ.

فَخُيِّلَ إِلَيَّ ـ لِهَوْلِ مَا سَمِعْتُ ـ أَنَّ آخِرَةَ الْعَالَمِ قَدْ حَانَتْ! وَخَرَجْتُ أَمْشِي فِي أَنْحَاءِ الْقَصْرِ هَائِمَةً؛ فَوَجَدْتُ كُلَّ مَنْ رَأَيْتُ ـ مِنْ وَصَائِفَ وَوَصِيفَاتٍ، وَنِسَاءٍ وَفَتَيَاتٍ ـ تَمَاثِيلَ صُمًّا مِنَ النُّحَاسِ! فَأَسْرَعْتُ إِلَى دِيوَانِ أَبِي أَسْتَجْلِي الْخَبَرَ، فَرَأَيْتُهُ جَالِسًا مَعَ حَاشِيَتِهِ وَسَرَاةِ مَمْلَكَتِهِ، وَكُلُّهُمْ تَمَاثِيلُ نُحَاسِيَّةٌ! وَانْدَفَعْتُ فِي طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَأَسْوَاقِهَا، فَلَمْ تَقَعْ عَيْنَايَ إِلَّا عَلَى تَمَاثِيلَ نُحَاسِيَّةٍ!!

وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ مِصْدَاقَ مَا أَقُولُ، وَشَهِدْتَ بِعَيْنِكَ، وَأَبْصَرْتَ بِنَاظِرِكَ كَيْفَ تَحَوَّلَتِ الْكِلَابُ وَالْقِطَطَةُ وَالْجِرْذَانُ وَالطُّيُورُ تَمَاثِيلَ صُمًّا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَتَحَرَّكُ!

وَقَضَيْتُ يَومًا رَاعِبًا، وَلَيْلَةً سَاهِرَةً لِهَوْلِ مَا رَأَيْتُ. ثُمَّ غَلَبَنِي النَّوْمُ لِطُولِ مَا كَابَدْتُ مِنَ الضَّنَى وَالسَّهَرِ، فَرَأَيْتُ النَّاسِكَ يَزُورُنِي فِي عَالَمِ الأَحْلامِ، وَيُرَبِّتُ كَتِفِي مُتَلَطِّفًا، وَيَقُولُ لِي مُبْتَسِمًا:

«لَا تَخَافِي يَا «رَائِعَةُ» وَلَا تَحْزَنِي، فَلَنْ يُصِيبَكِ سُوءٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَسَيَكُونُ خَلاصُكِ وَخَلاصُ كُلِّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى يَدِ رَجُلٍ صَالِحٍ شُجَاعٍ، اسْمُهُ الأَمِيرُ «إِقْبَالٌ» وَسَيَشْتَرِكُ مَعَهُ أَخُوكِ الأَمِيرُ «فَاضِلٌ» فِي كَشْفِ الْغُمَّةِ وَزَوَالِ السِّحْرِ عَنِ الْمَدِينَةِ وَسَاكِنِيهَا. فَاصْبِرِي عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا تَخْشَيْ أَنْ تَهْلِكِي جُوعًا؛ فَقَدْ بَقِيَتْ لَكِ مِنْ بَيْنِ أَشْجَارِ الْحَدِيقَةِ شَجَرَتَا تِينٍ وَتُفَّاحٍ، لَمْ تُمَسَّا بِسُوءٍ. فَكُلِي مِنْهُمَا كُلَّما جُعْتِ، وَاشْرَبِي مِنَ النَّبْعِ الصَّافِي الَّذِي

يَسْقِيهِمَا، وَاشْكُرِى اللهَ عَلَى مَاهَيَّأَ لَكِ مِنْ سَلامَةٍ وفَوْزٍ بِالسَّعَادَةِ، واتَّجِهِى إِلَيْهِ، وَأَخْلِصِى فى عِبَادَتِهِ».

وكَانَ فى قَصْرِنا مَكْتَبَةٌ حَافِلَةٌ بِنَفَائِسِ المَخْطُوطاتِ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا ـ وَأَنَا أَخْشَى أَنْ تَكُونَ المِحْنَةُ قَدْ أَصَابَتْها ـ فوَجَدْتُهَا كَمَا هِىَ، وَالْحَمْدُ للهِ. فَكَانَ لى فى القِراءَةِ خَيْرُ عَزاءٍ».

فَلَمَّا سَمِعَ الأَمِيرُ «إِقْبَالُ» حَدِيثَ الأَمِيرَةِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَجَبُ، وَسَأَلَها مُتَحَيِّرًا:

«وَكَيْفَ نَجَوْتِ وَحْدَكِ مِنْ سِحْرِ السَّاحِرِ، فَلَمْ تَتَحَوَّلى تِمْثَالًا مِنَ النُّحَاسِ، كَمَا تَحَوَّلَ مَنْ فى الْمَدِينَةِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوانٍ وَنَاسٍ؟».

٤ـ فَتاةُ الجِنِّ

فَقالَتِ الفَتَاةُ:

«لِذَلِكَ نَبَأٌ عَجِيبٌ، أَنَا أَقُصُّهُ عَلَى سَيِّدِى: بَيْنا كانَتْ أُمِّى تَسِيرُ ذَاتَ يَوْمٍ فى أَحَدِ المُرُوجِ المُحِيطَةِ بِقَصْرِنَا الرِّيفِىِّ؛ إِذْ رَأَتْ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا حَيَّةً بَيْضَاءَ، تَجِدُّ مُسْرِعَةً فى الهَرَبِ، وَخَلْفَهَا ثُعْبانٌ أَسْوَدُ يَجْرِى فى أَثَرِهَا مُسْرِعًا فى الطَّلَبِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يُدْرِكَهَا وَيُمْسِكَ بِرَأْسِهَا، وَيَلُفَّ ذَيْلَهُ عَلَى ذَيْلِهَا، وَيُوشِكَ أَنْ يَفْتِكَ بِهَا.

فَأَسْرَعَتْ أُمِّى إِلَى نَجْدَةِ الحَيَّةِ البَيْضَاءِ، وَقَذَفَتِ الثُّعْبَانَ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ؛ فَحَطَّمَتْ رَأْسَهُ وَقَتَلَتْهُ عَلَى الفَوْرِ. وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَها حِينَ رَأَتِ الثُّعْبَانَ الأَسْوَدَ يَتَحَوَّلُ بَعْدَ مَوْتِهِ فِى مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ كُومَةً مِنْ رَمَادٍ، وَتَنْتَفِضُ الحَيَّةُ البَيْضَاءُ، فَإِذَا هِىَ فَتَاةٌ رَائِعَةُ الجَمَالِ، فِى رَيْعَانِ صِبَاهَا، وَمُقْتَبَلِ شَبَابِهَا، ثُمَّ تَقُولُ لأُمِّى شَاكِرَةً:

«هَيْهَاتَ أَنْ يَضِيعَ عِنْدِى، يَا مَلِيكَةَ الإِنْسِ، مَا أَسْدَيْتِ إِلَىَّ مِنْ مَعْرُوفٍ! وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ أَنَّكِ أَنْقَذْتِنِى مِنْ عَدُوِّىَ اللَّدُودِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَ أَنْ يُهْلِكَنِى. وَلَعَلَّ اللهَ يُقْدِرُنِى عَلَى رَدِّ الجَمِيلِ إِلَيْكِ فِى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ».

ثُمَّ أَشَارَتْ فَتَاةُ الجِنِّ بِيَدِها، فَانْشَقَّتِ الأَرْضُ، وَسُرْعَانَ مَا غَاصَتْ فِيهَا وَاسْتَخْفَتْ عَنِ الأَنْظَارِ، وَعَادَتِ الأَرْضُ كَمَا كَانَتْ.

٥. هَدِيَّةُ الجِنِّيَّةِ

وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْحَادِثِ أَعْوَامٌ، ثُمَّ حَضَرَتْ فَتَاةُ الجِنِّ إِلَى أُمِّى يَوْمَ وَلَدَتْ أخِى «فَاضِلا»، وَأَهْدَتْ إِلَى أُمِّى قَارُورَةً صَغِيرةً مَلأَتْها مِنْ نَهْرِ «عَبْقَرَ»، وَأَوْصَتْها أَنْ تَمْزُجَ بِلَبَنِهَا قَطَراتٍ مِنْ مَائِها، ثُمّ تَسْقِىَ وَلِيدَها هَذَا الْمِزَاجَ، فَلَنْ تَفْرُغَ الزُّجَاجَةُ حَتَّى يُصْبِحَ الْوَلِيدُ آمِنًا مِنْ سِحْرِ كُلِّ ساحِرٍ، وَكَيْدِ كُلِّ كَائِدٍ.

فَشَكَرَتْ لَهَا أُمِّى هَدِيَّتَهَا، وَاتَّبَعَتْ نَصِيحَتَهَا.

ثُمَّ جَاءَتْ فَتَاةُ الجِنِّ ـ يَوْمَ وَلَدَتْنِى أُمِّى ـ فَأَحْضَرَتْ لَهَا مِثْلَ الْقَارُورَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِى أَحْضَرَتْهَا يَوْمَ وُلِدَ أَخِى، وَأَوْصَتْهَا أَنْ تَسْقِيَنِى مِنْهَا، كَمَا سَقَتْ أَخِى مِنْ قَبْلُ.

وَقَدْ صَدَقَتْ فَتَاةُ الجِنِّ فِيمَا قَالَتْ؛ فَقَدْ مُسِخَ كُلُّ مَنْ فِى الْمَدِينَةِ مِنْ إِنْسَانٍ، وَطَيْرٍ وَحَيَوانٍ، وَنَجَوْتُ وَحْدِى مِنَ المَسْخِ؛ بِفَضْلِ مَا شَرِبْتُ مِنْ مَاءِ «عَبْقَرَ».

وَمَا إِنْ أَتَمَّتِ الأَمِيرةُ حَدِيثَهَا حتَّى أَقْبَلَ شَابٌّ بَادِى القُوَّةِ، لَمْ يَشُكَّ الأَمِيرُ حِينَ رَآهُ أَنَّهُ شَقِيقُ الْفَتَاةِ.

الفَصْلُ الخَامِسُ

١ـ شَقِيقُ الأَمِيرَةِ

وَابْتَدَرَهُمَا الفَتَى مُحَيِّيًا فى ابْتِسامٍ، وَأَدَبٍ واحْتِرامٍ، مُرَحِّبًا بِالأَمِيرِ «إِقْبَال»، مُهَنِّئًا شَقِيقَتَهُ عَلَى زِيَارَةِ الضَّيْفِ العَظِيمِ.

فَتَعَجَّبَ الأَمِيرانِ مِمَّا رَأَيَا وَسَمِعَا، وَسَأَلاهُ:

«كَيْفَ عَرَفْتَ اسْمَ الأَمِيرِ؟ وَمَنْ أَنْبَأَكَ بِقُدُومِهِ؟».

فَقَالَ لَهُمَا:

«لَقَدْ عَرَفْتُ الكَثِيرَ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَبَقِىَ أَنْ تَعْرِفَا طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِى!».

فَقَالَ الأَمِيرانِ:

«مَا أَشْوَقَنَا إِلَى حَدِيثِك!».

فَقَال الأَمِيرُ:

«لَقَدْ أَبْحَرْتُ ـ كَمَا تَعْلَمُ أُخْتِىَ العَزِيزَةُ ـ فى نُخْبَةٍ مِنْ أَصْحَابِى لِزِيَارَةِ عَمِّى تَلْبِيَةً لِدَعْوَتِه الكَرِيمَةِ، وَاشْتَرَكْتُ مَعَهُ فى الاحْتِفَالِ بِزَوَاجِ ابْنَتِهِ. وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ سَعِيدَةً مُوَفَّقَةً، وَأَقَمْنا فى ضِيَافَتِهِ، وَكُنَّا

كُلَّمَا هَمَمْنا بِالْعَوْدَةِ شَـدَّدَ عَلَيْنَا فى الْبَقَـاءِ، فَلَبِثْنَا فى ضِيَافَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عَـامٍ. ثُـمَّ أَذِنَ لنَا بِالسَّـفَرِ عَلَى كُرْهٍ مِنْـهُ، وَزَوَّدَنَا بِمَا مَلأَ سَـفِينَتَنَا مِنْ هَدَاياهُ. وَأَوْدَعَنا تَحِيَّةً لَكِ وَلأَبِينَا وَشَـعْبِهِ الكَرِيمِ. ثُمَّ قَفَلْنَا عائِدِينَ، فَقَضَيْنَـا عِدَّةَ أَيَّامٍ فى جَوٍّ طَيِّبٍ وَرِيحٍ مُعْتَدِلَةٍ. فَلَمَّا جَاءَ اليَوْمُ الثَّالِثَ عَشَـرَ تَغَيَّـرَتِ الرِّيـحُ فَجْأَةً، وَهَبَّـتِ العَاصِفَةُ شَـدِيدَةً عَاتِيَـةً تُنْذِرُنا بِالْغَـرَقِ بَيْـنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى. فَلَـمْ نَلْبَثْ أَنْ دَبَّ الْيَأْسُ إِلَى نُفُوسِـنا، فَتَرَكْنَا السَّـفِينَةَ تَحْـتَ رَحْمَةِ الرِّيَاحِ الْهُوجِ، وَالأَمْـوَاجِ الثَّائِرَة. وَلا تَسْـأَلا ـ أَيُّهَا العَزِيزانِ ـ عَنْ دَهْشَـتِنَا حِينَ كُتِبَتِ السَّـلَامَةُ لِسَفِينَتِنَا. ومَا نَدْرِى بِأَيَّةِ مُعْجِزَةٍ نَجَوْنَا مِنَ الغَرَقِ، فَبَلَغْنَا البَرَّ آمِنِينَ.

٢ـ نَصِيحَةُ الْمَلَّاحِ

وَمـا إِنْ حَلَلْنَا بِالسَّـاحِلِ، حتَّى بَدَا لنَا المَكانُ مُقْفِـرًا لَا أَنِيسَ بِهِ وَلَا دَيَّارَ. فَمَشَـيْنَا نَرْتَادُ الْجَزِيرَةَ حتَّى بَلَغْنَـا غَابَةً كَثِيفَةً. وَكَانَ مَعَنَا مَلَّاحٌ هَرِمٌ تَعَوَّدَ السَّفَرَ كَثِيرًا إِلَى شَوَاطِئِ الْهِنْدِ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ، فَحَذَّرَنا مِـنَ البَقَـاءِ، وَنَصَحَنَا بِالإِسْـرَاعِ فى تَرْكِ هـذِهِ الْجَزِيرَةِ المُوحِشَـةِ، وَحَدَّثَنا أَنَّ سُـكَّانَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الهَمَـجِ يَعْبُدُونَ ثُعْبانًا هَائِلَ الحَجْمِ؛

وَقَـدْ تَعَوَّدُوا أَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ كُلَّ مَنْ يُوقِعُهُ سُـوءُ الْحَظِّ فى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْغُرَباءِ، فَيَلْتَهِمَهُ طَعَامًا سَائِغًا شَهِيًّا.

وَقَـدْ نَصَحنَا المَـلَّاحُ المُجَرِّبُ أَنْ نُعَجِّلَ بِتَـرْكِ الْجَزِيرَةِ الرَّاعِبَةِ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَنا أَهْلُهَا قُرْبانًا لِمَعْبُودِهِمُ الثُّعْبانِ.

وَلَمَّا كَانَ «كَاشِفٌ»: رُبَّانُ سَفِينَتِنا يَثِقُ بِذَلِكَ المَلَّاحِ، وَلا يَشُكُّ فى خِبْرَتِهِ وَدُرْبَتِهِ، وَصِدْقِ مَعْرِفَتِهِ بِمَسَالِكِ البِحارِ، لَمْ يَتَرَدَّدْ فى قَبُولِ نُصْحِهِ، وَقَرَّرَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ السَّيْرَ فى صَبَاحِ غَدٍ.

وَكَانَ نِعْمَ الرَّأْىُ لَوْ سَافَرْنَا فى الحَالِ، وَلَمْ نُؤَجِّلِ الرَّحِيلَ إِلَى الصَّباحِ. إِذَنْ لَسَـلِمَتْ سَـفِينَتُنَا، ونَجا رَاكِبُوهَـا. وَلَكِنْ لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فى رَدِّ عادِيَةِ القَضاءِ.

٣ـ سُلْطَانُ الهَمَجِ

وَخَرَجْتُ أَرْتادُ الجَزِيرَةَ فى فَجْرِ اليَوْمِ التَّالى، فَرَأَيْـتُ زَنْجِيَّةً مِنْ أَهْلِ الجَزِيرَةِ،

وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَلَيَّ عَيْنَاها حَتَّى أَسْرَعَتْ بِالْفِرارِ. فَلَمْ أُعِرْها انْتِبَاهًا، وَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي، وَلَبِثْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، رَيْثَمَا أَعْدَدْنا العُدَّةَ لِلسَّفَرِ.

وَكَادَ يَتِمُّ لنَا مَا أَرَدْنا لَوْ لَمْ يَدْهَمْنَا أَهْلُ الجَزِيرَةِ وَيُحِيطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيُقَيِّدُونَا بِالسَّلاسِلِ والأَغْلَالِ. وَقَدِ اسْتَوْلَوْا عَلَى سَفِينَتِنَا عَنْوَةً، وانْتَهَبُوا كُلَّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ هَدَايَا وَطُرَفٍ.

وَحَمَلَنَا الْهَمَجُ إِلَى سُلْطَانِ الجَزِيرَةِ أَسْرَى، فَشَهِدْنَا بُيُوتَهُمْ أَشْبَهَ بِالأَكْوَاخِ وَالأَعْشَاشِ مِنْهَا بِالبُيُوتِ. ورَأَيْنَا سُلْطانَهُمْ «هِمْلاجَةَ»، وَهَذا هُوَ اسْمُهُ، مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشٍ مَبْنِيٍّ بِالْحِجَارَةِ، مُزَخْرَفٍ بِالأَصْدَافِ، وَهُوَ عِمْلاقٌ فَارِعُ الطُّولِ، ضَخْمُ الجُثَّةِ، مَدِيدُ الْقَامَةِ، عَظِيمُ الْهَامَةِ، بَشِعُ المَنْظَرِ، دَمِيمُ السِّحْنَةِ، أَشْبَهُ بِشَيْطَانٍ مِنْهُ بِإِنْسَانٍ. وكانَتْ بِنْتُهُ الأَمِيرَةُ «هُسْنارا»، وَهِيَ أَقْبَحُ مِنْ أَبِيهَا سِحْنَةً، وَأَضْخَمُ مِنْهُ جُثَّةً، جَالِسَةً بِجَانِبِهِ، وَلَمْ تَكُنْ تَزِيدُ عَلَى الثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا. وَقَدِ اضْطَرَّنَا وَزِيرُ الهَمَجِ، حِينَ مَثَلْنَا بَيْنَ يَدَيْ سُلْطَانِه، أَنْ نُقَدِّمَ وافِرَ الاحْتِرامِ.

ثُمَّ قَصَّ الْوَزِيرُ عَلَى السُّلْطَانِ وَبِنْتِهِ كَيْفَ عَثَرَتِ الجَارِيَةُ عَلَيْنَا، وَاهْتَدَتْ إِلَيْنَا.

٤ـ طَعَامُ الثُّعْبَانِ

فَابْتَهَجَ السُّلْطَانُ، وشَكَرَ لِوَزِيرِهِ وَجَارِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ، مَا وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنْ صَيْدٍ ثَمِينٍ.

ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِنَا فى مَغَارَةِ الأَسْرَى لِيُقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنَّا فى صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ قُرْبانًا لِمَعْبُودِهِمُ الأُفْعُوَانِ الْعَظِيمِ.

فَأَطَاعَ الوَزيرُ أَمْرَ سُلْطَانِه، وذَهَبَ بِنَا إِلَى الْمَغَارَةِ، حَيْثُ قَدَّمُوا لنَا ـ وَفْقَ تَقَالِيدِهِمْ ـ أَلْوَانًا مِنَ الطَّعَامِ، أَلِفُوا أَنْ يُسَمِّنُوا بِهَا الضَّحايا والقَرابِينَ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمُوهَا لِلْأُفْعُوَانِ الْمَعْبُودِ.

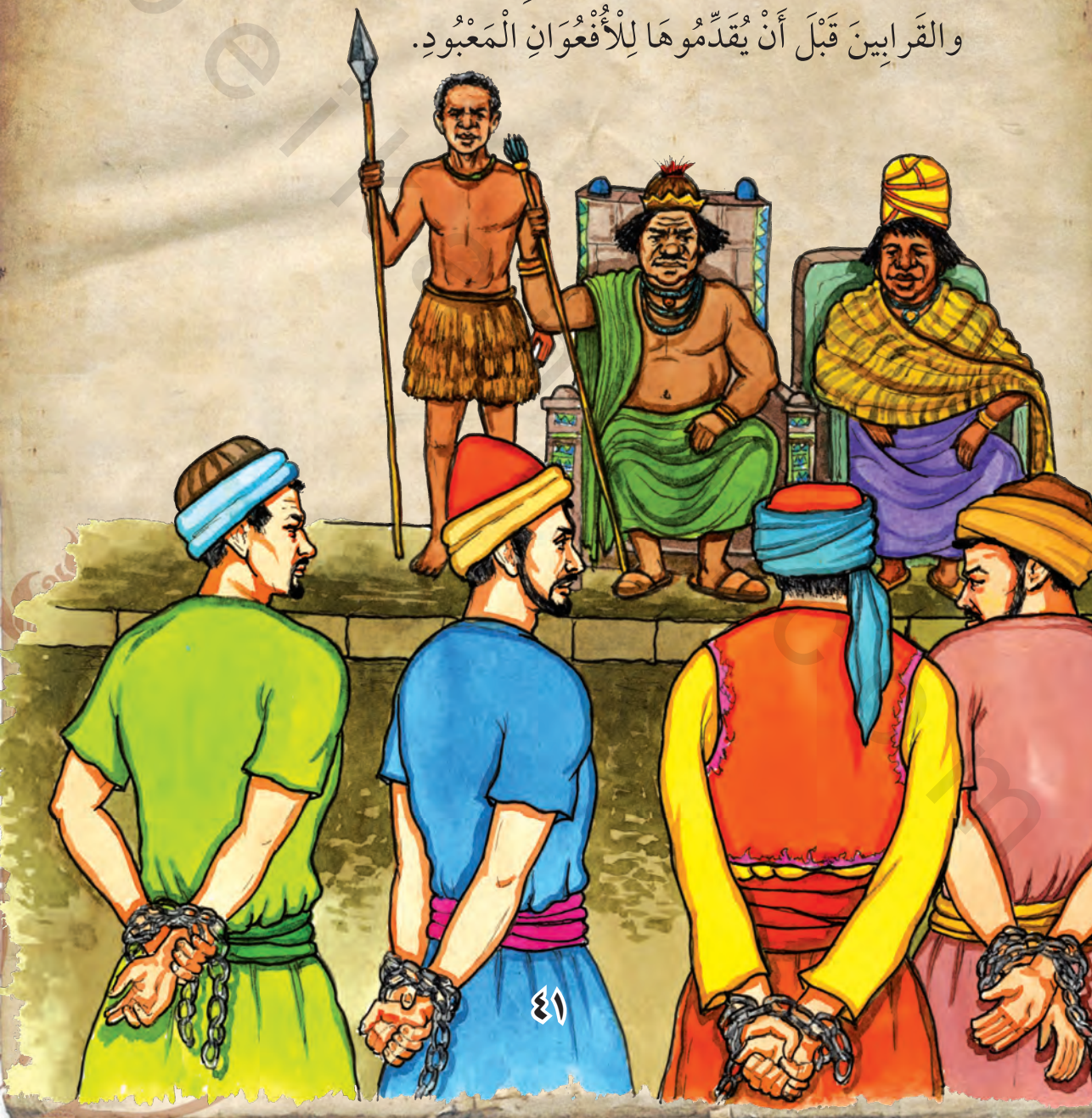

وَمَـرَّتْ بِنَا الأَيَّامُ ؛ يُقَدَّمُ ـ فى كُلِّ يَوْمٍ ـ وَاحِدٌ بَعْدَ آخَرَ، وَيَتَنَاقَصُ عَدَدُنَـا يَوْمًا بَعْدَ يَـوْمٍ، حَتَّى هَلَكَ رُكَّابُ السَّـفِينَةِ وَمَلَّاحُوها، وَلَمْ يَبْقَ مَعِى غَيْرُ «كاشِفٍ» رُبَّانِ السَّفِينَةِ.

فَسَـهِرْنَا لَيْلَتَنـا نَتَرَقَّـبُ مَصْـرَعَ أَحَدِنَـا فى صَبَـاحِ غَدٍ كَمَـا صُرِعَ أَصْحَابُنَا مِنْ قَبْلِنا، وَنَنْتَظِرُ حُضُورَ الْعِمْلاقَيْنِ لِيُفَرِّقَانا إِلَى الأَبَدِ.

٥ـ وَداعُ الرُّبَّانِ

وَلَمَّا دَنَا الْمَوْعِدُ نَظَرَ إِلَىَّ «كَاشِفٌ» مَحْزُونًا، وَقَالَ:

«لَقَـدْ فَقَدْنَا كُلَّ أَمَلٍ فى النَّجَاةِ. واحَسْـرَتاهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَيَّامِنَا فى الحَيَـاةِ غَيْرُ يَوْمَيْـنِ اثْنَيْن. وَلَيْسَ لى أُمْنِيَّـةٌ إِلَّا أَنْ يُقَدَّمَ يَوْمُ مَصْرَعِى عَلَى مَصْرَعِ سَـيِّدِى الأَمِيرِ؛ فَمَا أُطِيقُ أَنْ أَرَى مَوْلَاىَ الأَمِيرَ يُسـاقُ إِلَى الْمَوْتِ وَأَنا عَاجِزٌ عَنْ نُصْرَتِهِ!».

فَقُلْتُ لِـ «كَاشِفٍ» :

«مَـا أَتْعَـسَ حَظَّكَ أَيُّهَـا الصَّدِيقُ العَزِيـزُ! لَقَدْ بَذَلْـتُ جُهْدِى فى إِقْنَاعِكَ بِالْعُدُولِ عَنْ مُصَاحَبَتِى فى هَذِهِ الرِّحْلَةِ. وَلَكِنَّ سُوءَ حَظِّكَ أَبَـى إِلَّا أَنْ تُلِـحَّ فى مُصاحَبَتِـى. وَلَـوْلا إِلْحَافُـكَ لَنَجَـوْتَ مِنْ هذا المَصْرَعِ الْمُفَزِّعِ!».

وَمَا إِنْ أَتْمَمْتُ كَلامِى، حتَّى أَقْبَلَ الْعِمْلَاقَانِ، وَأَمَرانِى أَنْ أَتْبَعَهُمَا. فَلَمْ أجْزَعْ لِذَلِكَ، وَلَمْ أَتَهَيَّبْ هَذَا الْمَصِيرَ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَتَرَقَّبُهُ وَأَتَأَهَّبُ لَهُ؛ فَالْتَفَتُّ إِلَى الرُّبَّان أُوَدِّعُهُ الوَدَاعَ الأَخِيرَ الأَبَدِىَّ. فَاشْتَدَّ جَزَعُهُ عَلَىَّ، وَتَمَنَّى لَوْ قُدِّمَ قَبْلِى قُرْبَانًا لِلثُّعْبانِ.

٦ـ أَمِيرَةُ الْهَمَجِ

ثُمَّ صَحِبَنِىَ الْعِمْلَاقانِ إِلَى خَيْمَةٍ فَسِيحَةٍ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّنِى مُلاقٍ فِيهَا مَعْبُودَهُمُ الأُفْعُوَانَ، وَلَكِنْ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ لى فى حِسْبانٍ، فَقَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً مِنَ الهَمَجِ تُقْبِلُ عَلَىَّ بَاسِمَةً، وَتَقُولُ لى مُطَمْئِنَةً:

«لَا تَخَفْ ـ أَيُّهَا الفَتَى ـ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَنْ يُصِيبَكَ مَا أَصَابَ أَصْحَابَكَ. لَقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ مَوْلَاتِى الأَمِيرَةَ «هُسْنَارا» رَضِيَتْ عَنْكَ، وَادَّخَرَتْ لَكَ حَظًّا سَعِيدًا؛ فَهَنِيئًا لَكَ مَا ظَفِرْتَ بِهِ. وَلَنْ أُفْضِىَ إِلَيْكَ بِأَكْثَرَ مِمَّا قُلْتُ، فَإِنَّها سَتُفاجِئُكَ بِمَا ادَّخَرَتْهُ لَكَ مِنْ سَعَادَةٍ.

وَلَا تَنْسَ أَنَّنِى مُسْتَشارَةُ الأَمِيرَةِ وَجَارِيَتُهَا الْمُخْتَارَةُ. وَقَدْ أَذِنَتْ لى مُتَفَضِّلَةً فى أَنْ أُتِيحَ لَكَ شَرَفَ الْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهَا. فَطِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَإِنَّكَ مُلاقِيهَا بَعْدَ لَحَظَاتٍ».

وَانْصَرَفَ الْخَادِمانِ، وَأَمْسَكَتْ جَارِيَةُ «هُسْنَارا» بِيَدِى، وَقَادَتْنِى إِلَى مَخْدَعِ الأَمِيرَةِ، فَرَأَيْتُهَا تَجْلِسُ وَحْدَها عَلَى إِحْدَى الأَرائِكِ الْمُغَطَّاةِ بِجُلُودِ النُّمُورِ وَالأُسُودِ وَالفُهُودِ. وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا زَيْتُونِىَّ اللَّوْنِ، تَبْرُقُ فِيهِ عَيْنَانِ ضَيِّقَتانِ، يَتَخَلَّلُهُمَا أَنْفٌ كَبِيرٌ أَفْطَسُ، رُكِّبَ عَلَى شَفَتَيْنِ غَلِيظَتَيْنِ، تَنْطَبِقانِ عَلَى فَمٍ وَاسِعٍ، وَتَنْفَرِجانِ عَنْ أَسْنَانٍ كَبِيرَةِ الْحَجْمِ، عَنْبَرِيَّةِ اللَّوْنِ.

وَيَعْلُو رَأْسَها شَعَرٌ قَصِيرٌ جَعْدٌ فى مِثْلِ لَوْنِ الأَبَنُوسِ أَوْ هُوَ أَشَدُّ سَوادًا مِنْهُ، وَفَوْقَهُ قَلَنْسُوَةٌ صَفْرَاءُ مُطَرَّزَةٌ بِخَيْطٍ أَحْمَرَ. وَفى جِيدِهَا (رَقَبَتِهَا) عِقْدٌ مِنَ الخَرَزِ كَبِيرُ الحَجْمِ، يَزِينُهُ رِيشٌ مُخْتَلِفُ الأَلْوَانِ، بَعْضُهُ أَزْرَقُ، وَبَعْضُهُ أَصْفَرُ. وَقَدِ ارْتَدَتْ ثَوْبًا ضافِيًا مِنْ فِراءِ النُّمُورَةِ، يُغَطِّى جِسْمَهَا مِنْ كَتِفَيْهَا إِلَى قَدَمَيْهَا.

وَكَانَ مَنْظَرُ «هُسْنَارا» يُذَكِّرُنِى ـ كُلَّما تَمَثَّلْتُهَا ـ بِصُورَةِ الشَّيْطَانِ كَمَا أَتَخَيَّلُهُ، وَرُبَّما أَشْبَهَتِ القُرُودَ فى سَمَاجَةِ هَيْئَتِهَا، وَإِنْ خالَفَتْهَا فى خِفَّتِهَا، وَرَشَاقَةِ حَرَكَتِهَا.

وَمَا إِنْ رَأَتْنِى حَتَّى ابْتَدَرَتْنِى قَائِلَةً:

«لَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الفَتَى. طِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَلَنْ تَلْقَى عِنْدِى إِلَّا خَيْرًا. تَعَالَ فَاجْلِسْ إِلَى جَانِبِى؛ لِأُسْمِعَكَ مَا أَعْدَدْتُهُ لَكَ مِنْ بُشْرَياتٍ. لَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ السَّعَادَةُ، فَيَسَّرَتْ لَكَ سَبِيلَ النَّجَاةِ مِنَ

الْهَلاكِ، وَالْخَلاصِ مِمَّا لَقِيَهُ أَعْوَانُكَ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ».

ثُمَّ صَمَتَتْ «هُسْنَارا» قَلِيلًا، واسْتَأْنَفَتْ قائِلَةً:

«حَسْبُكَ سَعَادَةً أَنَّنى أُعْجِبْتُ بِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَاعَتِكَ، وَرَباطَةِ جَأْشِكَ (ثَباتِ قَلْبِكَ)، وَاسْتِهَانَتِكَ بِالْمَوْتِ. فَعَزَمْتُ عَلَى مُكَافَأَتِكَ عَلَى مَا تَمَيَّزْتَ بِهِ مِنْ خِلالٍ نَبِيلَةٍ، وَشَمَائِلَ عَالِيَةٍ، وَضَاعَفْتُ لَكَ الْجَزَاءَ، وَأَجْزَلْتُ الْعَطَاءَ، فَلَمْ أَقْتَصِرْ عَلَى إِنْقَاذِكَ مِنَ الْمَوْتِ، بَلِ اخْتَرْتُكَ زَوْجًا: زَوْجًا لِوَلِيَّةِ الْعَهْدِ «هُسْنَارا» أَمِيرَةِ البَحْرِ!

أَعَرَفْتَ أَىَّ مُفَاجَأَةٍ سَارَّةٍ أَعْدَدْتُها لَكَ أَيُّهَا الْمَحْظُوظُ السَّعِيدُ؟! سَتُصْبِحُ سُلْطَانَ هذِهِ الجَزِيرَةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِى. أَرَأَيْتَ كَيْفَ آثَرْتُكَ (فَضَّلْتُكَ) عَلَى صَفْوَةِ خاصَّتِى، وَسَراةِ مَمْلَكَتِى؟».

٧ـ مَأْدُبَةُ الْهِرَّةِ

أَىُّ نَبَإٍ هَائِلٍ سَكَّتْ أُذُنِى بِهِ؟ بَلْ أَىُّ شَقَاءٍ أَعَدَّتْهُ لى؟ إِنَّ الْمَوْتَ أَهْوَنُ عَلَىَّ مِنْ هذِهِ الخَاتِمَةِ المُفَزِّعَةِ. إِنَّ بَدَنِى لَيَقْشَعِرُّ كُلَّما طافَتْ بِرَأْسِى ذِكْرَياتُ ذَلِكَ الصَّباحِ الْمَشْئُومِ. وَسُرْعَانَ مَا تَمَثَّلْتُ تِلْكَ الطُّرْفَةَ الَّتى قَصَّها عَلَيْنَا مُعَلِّمُنَا وَنَحْنُ طِفْلانِ». فَسَأَلَتْهُ أُخْتُهُ:

«أَىَّ طُرْفَةٍ تَعْنِى؟ فَمَا أَكْثَرَ ما أَمْتَعَنا بِهِ مُعَلِّمُنَا مِنْ طَرائِفَ وَمُلَحٍ!».

فَقَالَ:

«أَلَا تَذْكُرِينَ قِصَّةَ الْهِرَّةِ (القِطَّةِ) الَّتِى كَانَ سَيِّدُها يُكْرِمُها، وَيُوالى بِرَّهُ بِهَا، وَعَطْفَهُ عَلَيْهَا بِمَا يُقَدِّمُهُ لهَا مِنْ دَجَاجٍ وَبَطٍّ وَحَمَامٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذِيذِ الطَّعامِ. فَلَمْ تَجِدْ وَسِيلَةً لِشُكْرِهِ عَلَى مَا غَمَرَها بِهِ مِنْ جَمِيلٍ إِلَّا أَنْ تُكَافِئَهُ بِفَأْرَةٍ اصْطادَتْها؛ لِيَنْعَمَ بِضِيَافَةِ الْهِرَّةِ كَمَا نَعِمَتْ بِضِيَافَتِهِ. مَا أَشْبَهَ مَا صَنَعَتْهُ الهِرَّةُ بِمَا صَنَعَتْ «هُسْنَارا»! كِلْتاهُمَا لَا تَعْرِفُ أَنَّ لَحْمَ الفِيرانِ لا يَصْلُحُ طَعَامًا لِلْإِنْسانِ!

٨- غُرُورُ «هُسْنَارا»

وَكَانَ خَوْفى مِنْ غَضَبِ هَذِهِ الحَمْقَاءِ يَحُولُ دُونَ مُكاشَفَتِها بِمَا مَلَأَ نَفْسِى مِنْ نُفُورٍ وَاحْتِقَارٍ، وَمَا أَفْعَمَ قَلْبِى مِنْ كَرَاهِيَةٍ وَاشْمِئْزَازٍ. فَآثَرْتُ الصَّمْتَ جَوابًا. فَقَالَتْ «هُسْنارا»:

«مَا بَالُكَ صَامِتًا لَا تَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؟ لَا رَيْبَ أَنَّ مَا فَاجَأْتُكَ بِهِ مِنْ سَعادَةٍ لا تَخْطُرُ بِالْبَالِ، قَدْ أَذْهَلَكَ وَعَقَدَ لِسَانَكَ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ! الْحَقُّ مَعَكَ؛ فَمَا كَانَ يَدُورُ بِخَلَدِكَ أَنْ يَقَعَ اخْتِيَارُ بِنْتِ سُلْطَانِ الْجَزِيرَةِ عَلَى أَسِيرٍ مِثْلِكَ، فَتُكْتَبَ لَهُ السَّلامَةُ مِنْ مَصْرَعٍ

وَخِيمٍ، وَيَتَبَدَّلَ شَقَاؤُهُ بِحَظٍّ عَظِيمٍ. إِنَّ صَمْتَكَ دَلِيلُ إِخْلَاصِكَ واعْتِرافِكَ بِمَا أَسْدَيْتُ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيلٍ».

وَلَمَّا أَتَمَّتْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ، قَدَّمَتْ لي إِحْدَى يَدَيْهَا، لأُقَبِّلَهَا، فَقَبَّلْتُهَا عَلَى مَضَضٍ. وَكَانَ اقْتِنَاعُهَا بِجَمالِها، وَثِقَتُها بِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَاهَا سَيُفَضِّلُها عَلَى نِسَاءِ العَالَمِ قَاطِبَةً أَشْبَهَ بِاقْتِناعِ تِلْكَ الهِرَّةِ بِأَنَّ لَحْمَ الْفِيرانِ أَشْهَى غِذَاءٍ وَأَلَذُّ طَعَامٍ.

وَقَدْ خَيَّلَ لَهَا غُرُورُها أنَّ مَا رَأَتْهُ عَلَى وَجْهِى مِنْ أَمَارَاتِ الحَيْرَةِ والسُّخْطِ وَالاشْمِئْزازِ، دَلِيلٌ نَاطِقٌ عَلَى فَرْطِ إِعْجَابِى بِحُسْنِهَا، وَافْتِتَانى بِجَمَالِها. وَسُرْعَانَ مَا أَقْبَلَتْ جارِيتَانِ، وَفَرَشَتا عَلَى الأَرْضِ نَفَائِسَ مِنْ فِراءِ النُّمُورَةِ وَالسِّباعِ وَالفُهُودِ. ثمَّ جَاءَتْ جَوارٍ ثَلاثٌ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا صِحَافٌ مَمْلُوءَةٌ بِشَرائِحِ اللَّحْمِ الْمَغْمُورِ فى الْعَسَلِ، وَما إِلى ذَلِكَ مِنْ غَرِيبِ مَا أَلِفُوهُ مِنْ أَلْوَانِ الأَطْعِمَةِ.

ثُمّ أَشَارَتِ الأَمِيرَةُ إِلَيَّ أَنْ أَجْلِسَ إِلى جَانِبِها عَلَى فَرْوَةِ نَمِرٍ لأَشْرَكَها فى الطَّعامِ. فَأَذْعَنْتُ لأَمْرِهَا كَارِهًا، وَازْدَرَدْتُ لُقَيْماتٍ. وَكَانَتِ الأَمِيرَةُ تُشَجِّعُنِى عَلَى الاسْتِزادَةِ مِنْ طَعامِهَا، وَتَقُولُ لى بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ:

«مَاذا بِكَ أَيُّها الفَتَى؟ مَا بَالُكَ لَا تُقْبِلُ عَلَى الطَّعامِ؟ لا رَيْبَ أَنَّ مَا فَاجَأْتُكَ بِهِ مِنْ بُشْرَياتٍ قَدْ شَغَلَكَ عَنْ كُلِّ شَىْءٍ، ومَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَعَجِّلًا تَحْقِيقَ وَعْدِى! الْحَقُّ مَعَكَ يَا فَتَى؛ فَخَيْرُ البِرِّ عاجِلُهُ. هَأَنَذِى مُسْرِعَةٌ إِلَى مُقَابَلَةِ أَبِى لأَرْجُوَهُ أَنْ يَسْتَبْقِىَ لى حَيَاتَكَ وَحَياةَ صَاحِبِكَ الَّذِى اخْتَارَتْهُ جَارِيَتِى الْوَفِيَّةُ «مَهْرَفْيا» زَوْجًا لَهَا!».

وَلَمَّا أَتَمَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَذِنَتْ لى بِالْخُرُوجِ، وَقَالَتْ لى وَهِىَ تُوَدِّعُنِى:

«عُـدْ إِلى خَيْمَتِـكَ أَيُّها الفَتى، وَنَبِّـئْ صَاحِبَكَ أَنَّ السَّـعادَةَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْـهِ، وَأَنَّ زَوَاجَهُ بِوَصِيفَتِى الْمُخْتَارَةِ «مَهْرَفْيَا» سَـيَتِمُّ مَعَ زَوَاجِكَ بِى. عَجِّلْ إِلَيْهِ بِهذِهِ البُشْـرَى، واشْكُرِ الْحَظَّ السَّعِيدَ الَّذِى أَفْرَدَكُما مِـنْ بَيْنِ إِخْوَانِكُمـا بالنَّجاةِ مِنَ الْهَـلَاكِ، وَأَتَاحَ لِكِلَيْكُمَـا أَنْ تَنْعَما بِالسَّـعَادَةِ الْكَامِلَـةِ. طِيبَـا نَفْسًـا، وَقَـرَّا عَيْنًـا؛ فَإِنِّـى مُحَقِّقَـةٌ لَكُمـا رَجَاءَكما، وَمُبَلِّغَتُكُمَا أُمْنِيَّتَكُمَا، وَسَتَعَشَّـيانِ مَعِى هذِهِ اللَّيْلَةَ حِينَ تَكُفُّ شُـعْلَةُ النَّهارِ عَنْ إِضاءَةِ الْجَزِيرَةِ السَّـعِيدَةِ. وَلْيُبَارِكْ مَعْبُودُنا الأُفْعُوَانُ الْعَظِيمُ فى حَياتِنَا الْمَدِيدَةِ!».

فَتَظَاهَرْتُ بِشُكْرِ «هُسْنَارا» أَمِيرَةِ الْهَمَجِ، عَلَى مَا أَسْدَتْهُ مِنْ فَضْلٍ عَمِيـمٍ، وَأَنَـا أَلْعَنُهـا فى نَفْسِـى، وَأُفَضِّلُ الْمَـوْتَ عَلَى الـزَّوَاجِ بِهَذِهِ الشَّيْطَانَةِ. ثُمَّ نَادَتِ الأَمِيرَةُ بَعْضَ خَدَمِها لِيَذْهَبَ بِى إِلَى خَيْمَتِى.

٩ـ مُنَاقَشَةٌ حَزِينَةٌ

وَلَا تَسَـلْ عَنْ فَرَحِ «كاشِفٍ» حِينَ رآنِى قادِمًا عَلَيْهِ بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ تَلاقِينَا؛ فَقَدْ عَاوَدَهُ الأَمَلُ فى النَّجاةِ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنَ الْحَياةِ؛ فَقَالَ: «مَا أَسْـعَدَهَا مُفَاجَأَةً! وافَرْحَتَـاهُ! هَأَنْتَ ذا ـ يَا أَمِيرِىَ الْعَزِيزَ ـ لَا

تَـزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ. فَهَلْ أَطْمَعُ فى نَجَاتِكَ مِنَ الأُفْعُوَانِ وَعَوْدَتِكَ إِلَى مَمْلَكَتِكَ؟!».

فَقُلْتُ لَهُ مَحْزُونًا:

«لَقَدْ كُتِبَتْ لىَ السَّلامَةُ مِنَ الْهَلاكِ، وَالنَّجاةُ مِنَ الخَاتِمَةِ الفَاجِعَةِ الَّتِى انْتَهَتْ بِهَا حَيَاةُ رِفَاقِنَا الأَعِزَّاءِ. وَلكنْ...».

فَقَاطَعَنِى قَائِلًا:

«يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأةٍ سَعِيدَةٍ! وَلَكِنْ خَبِّرْنى: أَوَاثِقٌ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ؟ أَتُـرَاكَ نَجَـوْتَ مِنَ الأُفْعُـوَانِ؟ حَبَّذَا لَوْ صَدَقَـتِ الأَمانِىُّ وَصَحَّتِ الأَحْلَامُ!».

فَأَجَبْتُهُ مُتَجَهِّمَ الْوَجْهِ عَابِسًا:

«لَيْتَـكَ تُصْغِـى إِلى بَقِيَّـةِ الْحَدِيثِ! قُلْـتُ لَكَ: إِنَّنِـى نَجَوْتُ مِنَ الأُفْعُـوَانِ، وَلَكِـنَّ تَحْقِيقَ هَـذِهِ الأُمْنِيَّةِ سَـيُكَلِّفُنِى أَفْـدَحَ الأَثْمَانِ. وَسَتَرَى كَيْفَ يَتَبَدَّلُ سُرُورُكَ حُزْنًا إِذا عَرَفْتَ أَنّ فِقْدانَ الحَياةِ أَيْسَرُ مِنْ أَدَاءِ هَذَا الثَّمَنِ!».

فَقَالَ لى «كَاشِفٌ» مُتَعَجِّبًا:

«شَـدَّ مَا غَلَوْتَ يَا سَيِّدِى الأَمِيرَ وَأَسْـرَفْتَ! وَهَلْ فى الدُّنْيَا أَثْمَنُ مِنَ الْحَيَاةِ؟».

فَقُلْتُ لَهُ:

«لَا تَعْجَلْ بِحُكمِكَ».

وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَا فاجَأَتْنِى بِهِ الأَمِيرَةُ مِنْ رَغْبَةٍ فى الزَّواجِ بِى.

فَقالَ لى مُؤَسِّيًا:

«لَا رَيْبَ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. وَلَكِنَّ الْحَياةَ جَمِيلَةٌ عَلَى كُلِّ حالٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَمُوتَ فى مُقْتَبَلِ شَبابِهِ، فَجاهِدْ فى التَّغَلُّبِ عَلَى نَفْسِكَ، وأَذْعِنْ لِحُكْمِ الضَّرُورَةِ. وَلا تَنْسَ أَنَّ الْحازِمَ هُوَ مَنْ يُوازِنُ بَيْنَ الْمُصِيبَتَيْنِ، فَيَخْتارُ أَهْوَنَ الشَّرَّيْنِ!»

فَصِحْتُ بِهِ قائِلًا:

«أَىُّ نَصِيحَةٍ هَذِهِ الَّتِى تُقَدِّمُهَا لى؟ هَلْ يَدُورُ بِخَلَدِكَ أَنَّنِى أَسْتَطِيعُ اتِّباعَها وَالعَمَلَ بِهَا؟ سَنَرَى مَاذا أَنْتَ صانِعٌ. وَهَلْ سَتَتَّبِعُ الرَّأْىَ الَّذِى تُشِيرُ بِهِ عَلَىَّ، حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ «مَهْرَفْيَا» وَصِيفَةَ «هُسْنَارا» قَدِ اخْتارَتْكَ زَوْجًا لَها، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ ثَمَنًا لِخَلاصِكَ مِنَ الهَلاكِ. فَمَاذَا أَنْتَ قائِلٌ؟ لَقَدِ اخْتارَتْكَ وَهِىَ لَيْسَتْ أَكْثَرَ جَمالًا مِنْ مَوْلاتِها. أَتُراكَ مُسْتَعِدًّا لانْتِهازِ هَذِهِ الفُرْصَةِ الذَّهَبِيَّةِ النَّادِرَةِ؟!».

وَسُرْعانَ ما انْتَفَضَ «كَاشِفٌ» مُتَفَزِّعًا، وامْتُقِعَ لِهَوْلِ مَا يَسْمَعُ، فَابْتَدَرَنِى قائِلًا:

«واحَسْرَتَاهُ! يَا لَهُ مِنْ خَبَرٍ صَاعِقٍ! أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْلاىَ جادًّا فِيما يَقُولُ؟ إِنَّ لِقاءَ الأُفْعُوانِ أَهْوَنُ عَلَى نَفْسِى مِنْ لِقاءِ هَذِهِ الغُولِ!

بَـلْ إنِّى لَأُفَضِّلُ أَنْ يَكُـونَ لى أَلْفُ نَفْسٍ ـ يَلْتَهِمُهـا الثُّعْبانُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ـ عَلَى أنْ أُبْتَلَى بِهذِهِ المُصِيبَةِ!».

فَقُلْتُ لَهُ مُداعِبًا ساخِرًا:

«ما أَعْجَبَ أمْرَكَ! وَما أَسْرَعَ ما نَسِيتَ نَصِيحَتَكَ وَتَنَكَّرْتَ لِرَأْيِكَ! أَلَـمْ تَقُلْ لى: إنَّ الحَياةَ جَمِيلَةٌ عَلَى أَىِّ حالٍ، وَإنَّ بَعْضَ الشَّـرِّ أَهْوَنُ مِـنْ بَعْضٍ، وإنَّ الْحازِمَ الْفَطِنَ هُوَ مَنْ يَعْـرِفُ كَيْفَ يَخْتارُ بَيْنَهُما؟ فَإذا كانَ المَوْتُ لا يُخِيفُكَ، فَكَيْفَ تُرِيدُنِى عَلَى أنْ أَخافَهُ؟ أَنَسِيتَ ما قالَهُ الحَكِيمُ العَظِيمُ «بُزُرْجَمِهْرُ» لِمَلِيكِهِ، حِينَ سَأَلَهُ ذاتَ يَوْمٍ: «مـا الَّذِى هُـوَ خَيْرٌ مِنَ الحَيـاةِ؟ وَما الَّذِى هُوَ شَـرٌّ مِنَ المَوْتِ؟ أَتَعْرِفُ بِماذا أَجابَهُ؟».

فَقالَ «كاشِفٌ»:

«أَمَّا الَّذِى هُوَ شَـرٌّ مِنَ المَوْتِ، فَهُوَ الزَّواجُ بِمِثْلِ هذِهِ الشَّيْطانَةِ! فَكَيْفَ قالَ الحَكِيمُ؟».

فَقُلْتُ لَهُ:

«كانَ نِصْفُ جَوابِهِ قَرِيبًا مِمَّا سَمِعْتُهُ مِنْكَ؛ فَقَدْ قالَ لِمَلِيكِهِ: «أَمَّـا الَّذِى هُـوَ خَيْرٌ مِنَ الحَيـاةِ، فَهُوَ ما لا تَطِيبُ الحَيـاةُ إلَّا بِهِ. وَأَمَّا الَّذِى هُوَ شَرٌّ مِنَ المَوْتِ، فَهُوَ ما يُتَمَنَّى المَوْتُ مِنْ أَجْلِهِ!».

فَقالَ لى «كاشِفٌ»: «ما أَصْدَقَ ما قالَ!».

١٠ ـ الْفِرارُ مِنَ الجَزِيرَةِ

وَلَبِثْتُ مَعَ «كاشِفٍ» نُقَلِّبُ آراءَنا عَلَى كُلِّ وَجْهٍ، حَتَّى أَحْكَمْنا خُطَّةً لِلْفِرارِ مِنَ الجَزِيرَةِ المَشْئُومَةِ. وَسَنَحَتْ لَنا الفُرْصَةُ لِتَحْقِيقِ ما أَرَدْنا بَعْدَ أَنْ وَثِقْتْ بِنا الأَمِيرَةُ وَمُسْتَشارَتُها، وَأَطْلَقَتانا مِنَ الأَسْرِ، وَأَذِنَتا لَنا فى التَّجْوالِ، وَارْتِيادِ أَنْحاءِ الجَزِيرَةِ كَما نَشاءُ. وَساعَفَنا الحَظُّ بَعْدَ ساعاتٍ، فَوَجَدْنا زَوْرَقًا صَغِيرًا مِنْ زَوارِقِ الصَّيَّادِينَ مَرْبُوطًا إلى وَتِدٍ بِحَبْلٍ مَتِينٍ، فَحَلَلْناهُ وَانْطَلَقْنا بِهِ فى عُرْضِ البَحْرِ مُسْرِعَيْنِ، وَما إِنْ بَعُدْنا عَنِ الشَّاطِئِ حَتَّى فَطَنَ

بَعْضُ الْهَمَجِ إلى فِرارِنا، فانْدَفَعُوا إلى الشَّاطِئِ غاضِبينَ، وَراحُوا يَتَوَعَّدُونَنا مُزَمْجِرِينَ. وَسَمِعْنا وَزِيرَ الْهَمَجِ يُبَرْطِمُ وَيَرْطُنُ. فَلَمْ نُبالِ بِوَعِيدِهِ، وَلَمْ نَعْبَأْ بِتَهْدِيدِهِ؛ بَعْدَ أنْ أَوْغَلْنا فى البَحْرِ، وَأَصْبَحْنا بِمَنْجاةٍ مِنْ شَرِّ الْهَمَجِ.

وعِنْدَما أقْبَلَ اللَّيْلُ كانَتِ الْجَزِيرةُ قَدْ غابَتْ عَنْ ناظِرَيْنا.

❊ ❊ ❊

فَشَكَرْنا اللهَ ـ سُبْحانَهُ وَتَعالى ـ لِنَجاتِنا، وَشَعَرْنا بِسُرُورٍ عَظِيمٍ. وَشَغَلَنا فَرَحُنا بِالْخَلاصِ مِنَ الْهَمَجِ عَمَّا يُواجِهُنا مِنْ نَفادِ الزَّادِ وَأَخْطارِ البَحْرِ وَثَوْرَةِ الْأَمْواجِ، وَما يَتَهَدَّدُ زَوْرَقَنا مِنَ الْغَرَقِ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ.

وَلا عَجَبَ فى ذلِك؛ فَقَدْ كانَ الْمَوْتُ غَرَقًا أَيْسَرَ عَلَيْنا، وَأَبْهَجَ لِقَلْبَيْنا مِنْ إلْقائِنا بَيْنَ فَكَّيِ الثُّعْبانِ، أَوْ مُصاهَرَتِنا لِذَلِكَ السُّلْطانِ.

الفَصْلُ السَّادِسُ

١ـ جَنَّةُ الْبَحْرِ

وانْطَلَقَ بِنا الزَّوْرَقُ فى عُرْضِ الْبَحْرِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، حَتَّى لاحَتْ لَنا تَباشِيرُ الصُّبْحِ، فَحَلَلْنا جَزِيرَةً كَثِيرَةَ الْأَنْهارِ، وارِفَةَ الْأَشْجارِ، دَانِيَةَ الثِّمارِ، تَكادُ غُصُونُها تَمَسُّ الْأَرْضَ لِوَفْرَةِ ما تَحْمِلُ مِنْ ناضِجِ الْفاكِهَةِ.

وَكانَتْ تُخَيِّلُ لِمَنْ يَراها أَنَّها جَنَّةٌ مِنْ جَنَّاتِ الْأَرْضِ. وَكانَ الْجُوعُ والْعَطَشُ قَدْ جَهَدانا وبَرَّحا بِنا، فَأَكَلْنا مِنْ لَذائِذِ فاكِهَتِها، وارْتَوَيْنا مِنْ عَذْبِ مائِها، وَحَمِدْنا اللهَ الَّذِى أَطْعَمَنا مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَنا مِنْ خَوْفٍ.

وَجَلَسْنا نَعْرِضُ ما مَرَّ بِنا مِنْ أَحْداثٍ وأَهْوالٍ، فَنَضْحَكُ مُتَفَكِّهِينَ بَعْدَ أَنْ نَجَوْنا مِنَ الْخَطَرِ وَضَمِنَّا السَّلامَةَ. وعَجِبْنا كَيْفَ خَلَتْ هذِهِ الْجَنَّةُ النَّاضِرَةُ مِنَ النَّاسِ! فَقُلْتُ لِصاحِبى:

«لِأَمْرٍ مَا أَقْفَرَتْ هذِهِ الْجَزِيرَةُ، فَلَمْ يَعْمُرْها أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَما أَظُنُّنا أَوَّلَ مَنْ حَلَّ بِأَرْضِها، وَأُعْجِبَ باعْتِدالِ جَوِّها وَلَذِيذِ فاكِهَتِها».

فَقالَ :

«الرَّأْىُ ما رَأَيْتَ. وَلَوْلا ذلِكَ، لَمَا خَلَتْ مِنْ أَهْلِيها، وَأَقْفَرَتْ مِنْ سَاكِنِيها».

وَكَأَنَّما أَجْرَى الْقَدَرُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسانِ صاحِبى عَلَى غَيْرِ مَعْرِفةٍ منْهُ بِما يَخْبَؤُهُ لهُ مِنْ أَحْداثٍ. وَقَضَيْنا نَهارَنا ولَيْلَنا فى مَرَحٍ وابْتِهاجٍ. وجَلَسْنا نَسْمُرُ فى ضَوْءِ الْبَدْرِ، ثُمَّ نِمْنا عَلَى الْحَشائِشِ الْخُضْرِ الْمُحَلَّاةِ بِالْأَزْهارِ ذاتِ الْأَريجِ الْفَوَّاحِ.

وغَلَبَنِىَ التَّعَبُ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلَّا فى الضُّحَى. ولَمْ أَجِدْ صاحِبى مَعِى، فَنادَيْتُهُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ أَظْفَرْ بِغَيْرِ رَجْعِ الصَّدَى.

وبَحَثْتُ عَنْهُ أُسْبُوعَيْنِ فى أَنْحاءِ الْجَزِيرَةِ، فَلَمْ أَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ! فَأَيْقَنتُ أَنَّ كارِثَةً حَلَّتْ بِهِ، ويَئِسْتُ مِنْ لِقائِهِ.

وَكُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَسْتَطِيعُ فِداءَهُ مِمَّا لَحِقَ بِهِ مِنَ الْمَكارِهِ لَوْ كانَ يُجْدِى الْفِداءُ.

وَا أَسَفَا عَلَيْهِ! لَقَدْ فَقَدْتُ فيهِ صَدِيقًا وَفِيًّا وأَمِينًا مُخْلِصًا، طَالَمَا شارَكَنِى هُمُومِى وآلامِى، وأَعانَنِى فى حَلِّى وتَرْحالى، وحَمَلَ عَنِّى ما أَنُوءُ بِهِ مِنْ أَثْقالِ الْحَياةِ. فَأَىُّ كارِثَةٍ فَرَّقَتْ بَيْنى وبَيْنَهُ بَعْدَ أَنْ نَجَوْنا مِنْ كُلِّ ما تَعَرَّضْنا لَهُ مِنْ فَوادِحِ الْكَوارِثِ؟!

ولاحَتْ لِعَيْنَىَّ ـ فى الْيَوْمِ الْخامِسَ عَشَرَ ـ غابَةٌ كَثيفَةٌ، فَيَمَّمْتُها، ورُحْتُ أَجُوسُ خِلالَ أَشْجارِها، فاعْتَرَضَنِى قَصْرٌ لَمْ أَرَ لَهُ شَبيهًا بَيْنَ قُصُورِ الْمُلُوكِ، تُحِيطُ بِهِ خَنادِقُ عَميقَةٌ واسِعَةٌ مَمْلُوءَةٌ ماءً. ورَأَيْتُ عَلَى أَحَدِها مَعْبَرًا مُتَحَرِّكًا أَسْلَمَنِى إلى مَيْدانٍ فَسيحٍ مُبَلَّطٍ بِالرُّخامِ الْأَبْيَضِ، يُواجِهُ بابَ

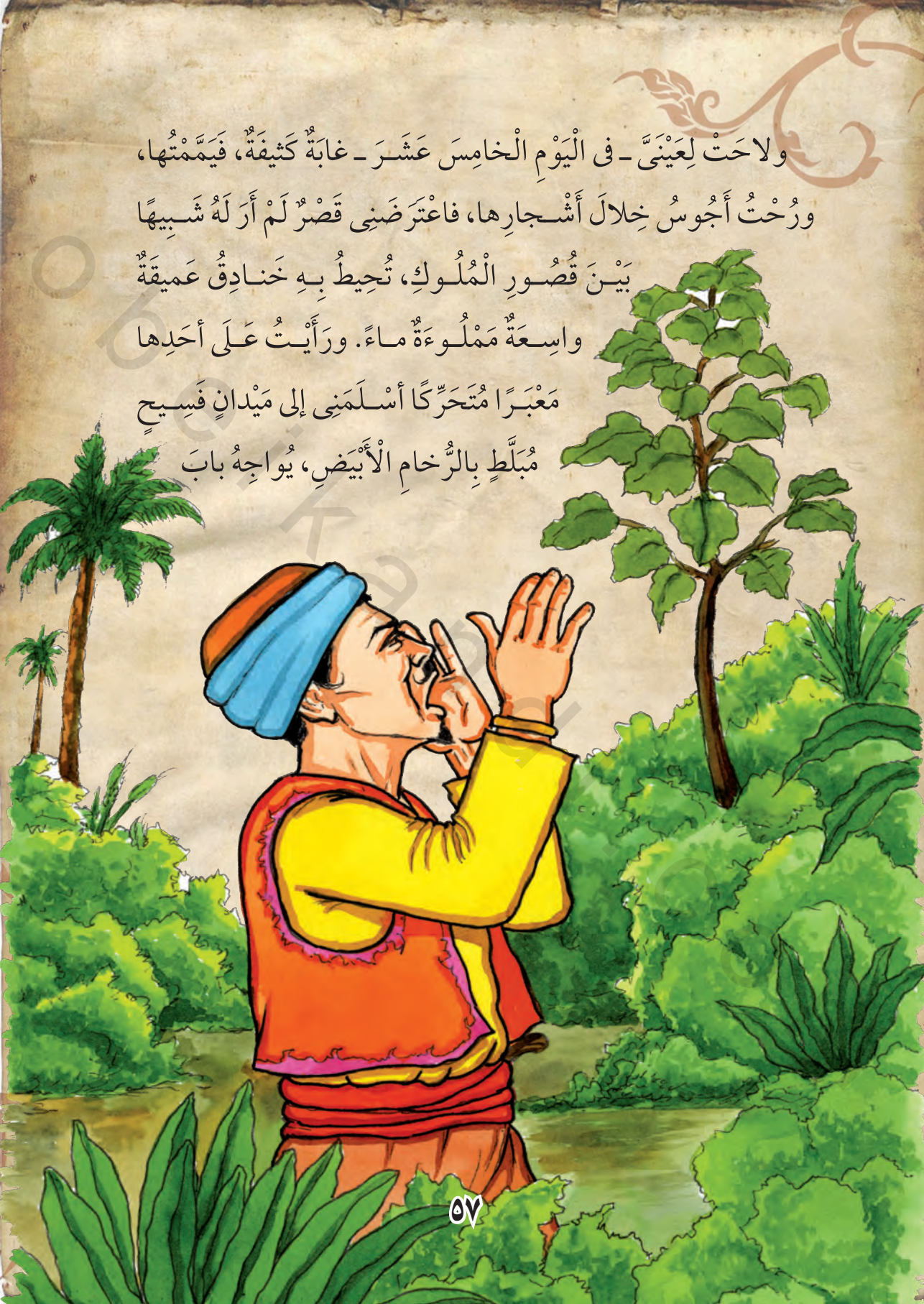

الْقَصْرِ. وَفى وَسَطِهِ فَتاةٌ بَهِيَّةُ الطَّلْعَةِ نائِمَةٌ عَلَى سَريرٍ فاخِرٍ، تَرْتَدِى ثَوْبًا حَرِيرِيًّا مُطَرَّزًا بِنَفِيسِ اللَّآلِئ، وعَلَى رَأْسِها تاجٌ مِنَ الذَّهَبِ مُرَصَّعٌ بِالْيَواقِيتِ والزُّمُرُّدِ والْماسِ، وَفى رَقَبَتِها عِقْدٌ منَ الْياقُوتِ النَّادِرِ، وفى وَسَطِهِ دُرَّةٌ كَبيرَةٌ لا تُقَوَّمُ بِمالٍ، ولُؤْلُؤَتانِ يَشِعُّ مِنْهُما نُورٌ باهِرٌ.

وقَدْ خُيِّلَ إِلَىَّ ـ حِينَ رَأَيْتُها ـ أَنَّها تَتَأَمَّلُنى وتُنْعِمُ نَظَرَها فىَّ. ولَمْ يَدُرْ بِخَلَدِى أَنَّها تِمْثالٌ صامِتٌ لا حَراكَ بِهِ، ولا حَياةَ فِيهِ. كَيْفَ؟! وجَمالُها مُشْرِقٌ، وحُسْنُها زاهِرٌ، وخَدَّاها مُوَرَّدانِ؛ يُؤَكِّدانِ لِمَنْ يَراهُما أَنَّ دَمَ الْحَياةِ يَجْرِى فى عُرُوقِ الْفَتاةِ مُتَدَفِّقًا.

وكانَ بَرِيقُ عَيْنَيْها يُخَيِّلُ لِمَنْ يَراهُ كأَنَّما يُحَرِّكُهما الْهُدْبُ، فَتَرْمِشُ بِهِما، فَلا يَتَمالَكُ أَنْ يَبْدَأَها بِالتَّحِيَّةِ.

يا لَلْعَجَبِ! أهذا تِمْثالٌ فاقِدُ الحَياةِ؟! تُرَى أىُّ مَثَّالٍ أَبْدَعَهُ؟ أَمَّا السَّرِيرُ الَّذِى اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ الْفَتاةُ فَلَهُ دَرَجٌ، وعَلَى الدَّرَجِ خادِمانِ: أَبْيَضُ وَأَسْوَدُ، وَبِيَدِ أَحَدِهِما رُمْحٌ مِنَ الْفُولاذِ، وَبِيَدِ الآخَرِ سَيْفٌ ماضٍ يَكادُ سَناهُ يَخْطَفُ الْأَبْصارَ. وَبَيْنَ يَدَيْهِما لَوْحٌ مُعَلَّقٌ فِيه مِفْتاحٌ ذَهَبِىٌّ.

وَدَنَوْتُ مِنَ اللَّوْحِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ نَقْشًا بَدِيعًا مَكْتُوبًا فى وَسَطِهِ:

«مَـنْ قَدِمَ عَلَى هـذِهِ الْجَزيرَةِ، وَيَسَّـرَ اللهُ لـهُ دُخُولَ هـذِهِ الْغابَةِ، وَكَتَبَ لَهُ الْوُصُولَ إِلَى هذا الْمَكانِ، وَأَرادَ أَنْ يَظْفَرَ بالْقَصْرِ السَّعيدِ، فَلْيَأْخُذْ هذا الْمِفْتاحَ دُونَ أَنْ يَمَسَّنِي أَوْ يَمَسَّ - مِنْ حَالِيَتِي وَلآلِئِي - شَيْئًا. فَإِذا وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ أَنْ يُخالِفَ هذا النُّصْحَ، عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتَّهْلُكَةِ، وخَسِرَ سَعادَتَه وحَياتَهُ جَميعًا!».

٢ـ قَنَاعَةُ الْأَمِيرِ

وَكان مِـنْ حُسْـنِ حَظِّـى أَنِّى تَعَـوَّدْتُ ـ مُنْـذُ نَشـاءَتِى ـ الطَّاعَةَ، وَرُضْت نَفْسِى عَلى الْقَناعَةِ. فاتَّبَعْتُ النُّصْحَ الَّذِى قَرَأْتُهُ، وَصَعِدْتُ الدَّرَجَ، وَأَخَذْتُ مِفْتاحَ الْقَصْرِ مِنَ اللَّوْحِ، دُونَ أَنْ يُساوِرَنِى الطَّمَعُ فى أَخْذِ ما عَداهُ.

ثُـمّ تَقَدَّمْـتُ إِلَى بـابِ الْقَصْرِ، وَهُوَ مَصْنُوعٌ مِنْ خَشَـبِ السَّـرْوِ، وبِـهِ نَقْشٌ بارِزٌ يُمَثِّلُ طائِفَةً مُخْتَلِفَةً مِـنَ الطَّيْرِ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ كَبِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ عَلَى هَيْئَةِ أَسَدٍ. فَما إِنْ وضَعْتُ الْمِفْتاحَ فى الْقُفْلِ حَتَّى انْفَتَحَ قَبْلَ أَنْ أُدِيرَ فِيهِ الْمِفْتاحَ! فَتَعَجَّبْتُ مِمَّا رَأَيْتُ. ولاحَتْ مِنِّىَ الْتِفاتَةٌ، فأَبْصَرْتُ سُـلَّمًا مِنَ الرُّخامِ الْأَسْـوَدِ، فَصَعِدْتُـهُ وَدَخَلْتُ بَهْوًا كَبِيرًا مُزَيَّنًـا بِالثُّرَيَّاتِ الْبَلُّورِيَّةِ والطَّنافِسِ الْحَرِيرِيَّـةِ الْمُذَهَّبَةِ، وبِهِ أرائِكُ مِـنَ الدِّيباجِ الْمُذَهَّبِ. فَأَسْـلَمَنِى إِلى حُجْرَةٍ أُخْـرَى ثَمِينَةِ الْأَثاثِ. ونَظَـرْتُ فَإِذا سَـيِّدَةٌ فى مُقْتَبَلِ شَـبابِها، نائِمَةٌ عَلَى إِحْـدَى الْأَرائِكِ، مُسْـنِدَةٌ رَأْسَها إِلَى وِسـادَةٍ حَرِيرِيَّةٍ، وقَدِ ارْتَدَتْ أَنْفَسَ الثِّيابِ، وإِلَى جانِبِها نَضَدٌ مِنَ الْمَرْمَرِ.

واقْتَرَبْتُ مِنْهَا، فَرَأَيْتُهَا مُغْمَضَةَ العَيْنَيْنِ. واسْتَمَعْتُ إِلَى أَنْفَاسِهَا الخَافِتَةِ، فَتَبَيَّنَ لى أَنَّهَا لاتَزَالُ على قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَعَجِبْتُ لِوُجُودِها وَحْدَها فى هَذا القَصْرِ الْمُنْفَرِدِ فى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ! وَخَطَرَ لى أَنْ أُوقِظَهَا مِنْ نَوْمِهَا، وَلَكِنَّنِى أَحْجَمْتُ حَتَّى لا أُنَغِّصَ عَلَيْها صَفْوَ رَاحَتِهَا، وَأُكَدِّرَ عَلَيْهَا هَنَاءَ رَقْدَتِهَا. فَغَادَرْتُ القَصْرَ، مُعْتَزِمًا عَوْدَتِى إِلَيْهِ بَعْدَ سَاعَاتٍ.

٣. عَجائِبُ الْجَزِيرَةِ

ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ تَجْوالى فى الْجَزِيرَةِ، فَرَأَيْتُ عَجَائِبَ مِنْ طَيْرِها وَحَيَوانِهَا وَحَشراتِهَا لَمْ أَرَ لَهَا مَثِيلًا فى غَيْرِهَا؛ فَقَدْ شَهِدْتُ مِنْ غَرائِبِها مَخْلُوقَاتٍ لَا أَدْرِى كَيْفَ أُسَمِّيهَا؛ فَهِىَ تَبْدُو فى هَيْئَةِ النَّمْلِ وَحَجْمِ النَّمِرَةِ! وَقَدْ حَسِبْتُها ـ أَوَّلَ مَا رَأَيْتُها ـ مُفْتَرِسَةً، فَتَأَهَّبْتُ لِصِراعِها، وَلَكِنَّها أَسْرَعَتْ بِالفِرارِ حِينَ رَأَتْنِى. وَلَقِيتُ أَنْوَاعًا أُخْرَى مِنْ مُخْتَلِفِ الْحَيَوانِ، تَبْعَثُ هَيْئَتُهَا عَلَى الرُّعْبِ وَالفَزَعِ. وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا نَفَرَتْ مِنِّى، وَحَادَتْ عَنْ طَرِيقِى دُونَ أَنْ تَمَسَّنِى بِأَذًى. وَعُدْتُ إِلَى القَصْرِ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَرَأَيْتُ الْفَتَاةَ لا تَزَالُ غَارِقَةً فى نَوْمِهَا.

٤ـ انْتِبَاهُ الأَمِيرَةِ

واشْتَدَّتْ رَغْبَتِى فى مُحَادَثَتِهَا؛ لأَتَعرَّفَ طَرَفًا مِنْ قِصَّتِهَا؛ فَأَثَرْتُ شَيْئًا مِنَ الضَّجِيجِ، وَسَعَلْتُ مَرَّاتٍ، فَلَمْ تَسْتَيْقِظْ، فَدَنَوْتُ مِنْهَا وَحَرَّكْتُهَا بِيَدِى، فَلَمْ تَشْعُرْ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ! فَاشْتَدَّ عَجَبِى، وَسَاوَرَنِى الشَّكُّ فى أَمْرِهَا، وَقُلْتُ فى نَفْسِى:

«لَعَلَّهَا مَسْحُورَةٌ. فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيقَاظِهَا مِنْ سُبَاتِهَا؟».

وانْتَابَنِى الْيَأْسُ مِنْ تَحْقِيقِ هذِهِ الغَايَةِ، فَهَمَمْتُ بِالْعَوْدَةِ. وَحَانَتْ مِنِّىَ الْتِفَاتَةٌ، فَرَأَيْتُ ـ عَلَى الْمَائِدَةِ الْمَرْمَرِيَّةِ ـ الْكَلِماتِ التَّالِيَةَ:

«مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الأَمِينُ. لَقَدْ بَرَّأَكَ اللهُ مِنَ الطَّمَعِ، فَظَفِرْتَ بِالْقَصْرِ السَّعِيدِ. فاهْمِسْ فى أُذُنِ الفَتَاةِ بِاسْمِكَ واسْمِ أَبِيكَ وَجَدِّك، تَسْتَيْقِظْ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ نَوْمِهَا العَمِيقِ».

فَأَذْعَنْتُ لِمَا أُمِرْتُ.

وما إِنْ نَطَقْتُ بِاسْمِى واسْمَىْ أَبِى وَجَدِّى حَتَّى تَنَفَّسَتِ الفَتاةُ الصُّعَداءَ، ثُمَّ فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا وَانْتَبَهَتْ! وَلَمْ تَكُنْ دَهْشَتُهَا لِرُؤْيَتِى بِأَقَلَّ مِنْ دَهْشَتِى لِرُؤْيَتِهَا، فَابْتَدَرَتْنِى قَائِلَةً:

«يَا لَكَ مِنْ مِقْدَامٍ شُـجَاعِ القَلْبِ، كَرِيـمِ النَّفْسِ. ولَوْلَا ذَلِكَ لَمَا تَخَطَّيْـتَ الْعَوَائِـقَ وَالْمُغْرِيـاتِ الَّتِـى أَهْلَكَتْ غَيْرَكَ مِمَّـنْ حَاوَلُوا دُخـولَ القَصْرِ، وَهِـىَ ـ بِلَا رَيْبٍ ـ فَوْقَ مَقْدُورِ الأَنَاسِـىِّ! تُرَى مَنْ تَكُونُ؟ أَجِنِّيٌّ أَنْتَ أَمْ مَلَكٌ؟».

فَقُلْتُ لَهَا:

«كَلَّا ـ يَـا سَـيِّدَتِى ـ مَا أَنَـا بِجِنِّىٍّ وَلا مَلَكٍ، بَلْ أَنَا إِنْسَـانٌ عادِىٌّ، قَدِمَ عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ مُصَادَفَةً، وَسَـاقَتْهُ قَدَماهُ ـ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ـ إِلَى هَذَا القَصْرِ الَّذِى تَسْـكُنِينَ، وَأَظْفَرَهُ الْحَظُّ السَّـعِيدُ بِمِفْتَاحِهِ فِى غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلا عَنَاءٍ».

فَقَالَتِ الفَتاةُ:

«لَـنْ يَتِـمَّ هذا إِلَّا لأَمِيرٍ فاضِلٍ كَرِيمٍ لَا يُخامِرُ نَفْسَـهُ الطَّمَعُ، وَلَا تَفْتِنُهُ الْمُغرِياتُ. فَمَنْ تَكُونُ؟».

فَرَوَيْتُ لَها ما لَقِيتُ فِى رِحْلَتِى مِنْ غَرائِبِ الأَحْداثِ، وَكاشَفْتُها بِما شَـعَرْتُ بِهِ مِنْ حُـزْنٍ عَمِيقٍ لِفِقْدانِ صَدِيقِى «كاشِـفٍ» بَعْدَ أَنْ نَجا كِلانا مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ مُهْلِكاتٍ.

٥ـ حَدِيثُ الْبَبَّغاءِ

وَهُنا سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتِفُ قائِلًا:

«لا تَأْسَفْ عَلَى صاحِبِكَ وَلا تَحْزَنْ، فَقَدْ أَهْلَكَهُ الطَّمَعُ، وَلَوْ خَلَصَتْ نَفْسُهُ مِنَ الْجَشَعِ، كَما خَلَصَتْ مِنَ الْخَوْفِ؛ لَكانَ جَدِيرًا مِثْلَكَ بِدُخُولِ هذا الْقَصْرِ السَّعِيدِ».

وَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ بَبَّغاءَ فَصِيحَةَ اللِّسانِ تَنْطِقُ بِهذا الْكَلامِ، فَسَأَلْتُها مُتَعَجِّبًا:

«خَبِّرِينِي ـ بِاللهِ ـ كَيْفَ أَهْلَكَ الطَّمَعُ صَدِيقِي «كاشِفًا»؟».

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ:

«كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الطَّمَعَ وَمُخالَفَةَ النُّصْحِ هُما اللَّذانِ انْتَهَيا بِصاحِبِكَ إِلَى الْهَلاكِ؛ فَقَدْ رَأَى تِمْثالَ الْفَتاةِ كَما رَأَيْتَهُ، وَأَغْراهُ الطَّمَعُ بِانْتِزاعِ العِقْدِ اللُّؤْلُئِيِّ مِنْ جِيدِ الْفتاةِ، وَما كادَ يَلْمِسُهُ حَتَّى ضَرَبَهُ أَحَدُ الْحارِسَيْنِ بِسَيْفِهِ، وَطَعَنَهُ الآخَرُ بِرُمْحِهِ، فَقُتِلَ مِنْ فَوْرِهِ، ثُمَّ جاءَتْ حَشَراتُ الْجَزِيرَةِ وَحَيَوانُها فَأَكَلَتْهُ، وَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ شَيْئًا، كَما أَكَلَتْ غَيْرَهُ مِنْ رُوَّادِ هذِهِ الْجَزِيرَةِ الطَّامِعِينَ. وَلَوْ طَمِعْتَ مِثْلَهُ وَفَعَلْتَ فِعْلَهُ لَلَقِيتَ مِثْلَ مَصْرَعِهِ؛ فَقَدْ عُنِيَ مُبْدِعُ هذا التِّمْثالِ

باخْتِبـارِ مَنْ يَفِدُ عَلَى هـذا الْقَصْرِ، فَنَثَرَ اللَّآلِـئَ وَالأَحْجارَ الكَرِيمَةَ حَوْلَ التِّمْثالِ لِيَتَعَرَّفَ الطِّباعَ، بَعْدَ أَنْ نَقَشَ عَلَى اللَّوْحِ الَّذِى رَأَيْتَهُ إِلَى جانِبِ التِّمْثالِ تَحْذِيرَهُ لِلطَّامِعِينَ وَإِنْذارَهُ لِلْمُغامِرِينَ. فَإِذا شَـغَلَتِ النَّفائِسُ أَحَـدَ الرُّوَّادِ عَنْ مِفْتاحِ الْقَصْرِ، كانَ غَيْرَ جَدِيرٍ بالسَّـعادَةِ. فَاحْمَدِ اللهَ عَلَى خُلُوصِ نَفْسِـكَ مِنَ الطَّمَـعِ فِيما لَيْسَ لَكَ، وَصَفاءِ قَلْبِكَ مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ صاحِبُكَ مِنَ الْهَلاكِ؛ فَقَدْ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ، فَاسْتَجابَ لَهُ، وَقالَ فى نَفْسِهِ:

«أَمِـنْ أَجْلِ هـذا التَّحْذِيرِ السَّـخِيفِ أَتْرُكُ هـذِهِ النَّفائِسَ؟ وَلِمَنْ أَتْرُكُها؟ وَمَنْ ذا الَّذِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرِمَنِى إِيَّاها؟ وَهَلْ يَقْدِرُ تِمْثالٌ عاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ أَنْ يُعاقِبَ أَحَدًا؟!».

٦ـ فى أَجْوازِ الْفَضاءِ

فَلَمَّـا انْتَهَتِ الْبَبَّغـاءُ مِنْ كَلامِها، تَمَلَّكَنِىَ الْعَجَبُ مِمَّا سَـمِعْتُ، وَاشْتَدَّ بِىَ الأَسَفُ لِمَصْرَعِ صاحِبِى «كاشِفٍ» الَّذِى أَوْرَدَهُ الْحِرْصُ مَوْرِدَ الْهَلاكِ. وَسَأَلْتُ الْفَتاةَ أَنْ تُحَدِّثَنِى بِقِصَّتِها، وَكَيْفَ حَلَّتْ بِهذا الْقَصْرِ. فَقالَتِ الْفَتاةُ:

«لِذلِكَ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، إِنَّها مُفاجأَةٌ لَمْ تَكُنْ لى فى الْحِسْبانِ، وَلَمْ تَخْطُرْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلى عَلَى بالٍ، فَقَدْ..».

وَهُنا شَعَرْتُ أَنَّ يَدًا رَفِيقَةً تَرْفَعُنِى إِلَى السَّمَاءِ، وَتَحْمِلُنِى مُحَلِّقَةً بى فى أَجْوَازِ الْفَضاءِ!! وَسُرْعَانَ مَا اسْتَخْفَى الْقَصْرُ والْفَتَاةُ عَنْ نَاظِرَىَّ، وَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَأَيْتُنِى هَابِطًا إِلى الأَرْضِ أَمَامَ بابِ الْمَدِينَةِ، دُونَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لى: أَىُّ قُوَّةٍ خَفِيَّةٍ نَقَلَتْنِى مِنَ القَصْرِ السَّعِيدِ إِلى أَرْضِ الْوَطَنِ فى مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ؟

وَرَأَيْتُ جَيْشَ ضَيْفِنا الْعَزِيزِ مُرابِطًا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلْتُهُمْ عَمَّا جاءَ بِهِمْ، فَلَمْ يُخْفُوا عَنِّىَ شَيْئًا».

٧ـ مُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ

وَأَرَادَ الأَمِيرُ أَنْ يُواصِلَ حَدِيثَهُ، لَوْلَا أَنَّ مُفاجَأَةً جَدِيدَةً عَقَدَتْ لِسانَهُ عَنِ الْكَلامِ.

يَا لَلْعَجَبِ! ها هِىَ ذِى فَتاةُ الْقَصْرِ السَّعِيدِ تَبْدُو ماثِلَةً أَمامَهُ! فَما إِنْ يَراهَا الأَمِيرُ «إِقْبالٌ» حَتَّى يَخِفَّ إِلى لِقائِها فى لَهْفَةٍ وَشَوْقٍ، وَلا يَتَمالَكَ أَنْ تَنِدَّ مِنْهُ صَرْخَةٌ مُتَحَيِّرَةٌ:

«رَبَّاهُ! مَرْحَبًا بِكِ يا «وَادِعَةُ» وَافَرْحَتَاهُ! مِنْ أَيْنَ قَدِمْتِ يَا أُخْتَاهُ؟ وَكَيْفَ كُتِبَتْ لَكِ النَّجاةُ؟».

فَقَالَ الأَمِيرُ «فاضلٌ»:

«مَا أَعْجَبَ مَا أَرَى وَأَسْمَعُ! أَلَا مَا أَسْعَدَنِى بِلِقاءِ الأَخَوَيْنِ وَاجْتِماعِ الشَّتِيتَيْنِ».

وَأَسْرَعَتْ «رَائِعَةُ» إِلَى ضَيْفِها «وَادِعَةَ» تُعانِقُها، وَتُرَحِّبُ بِها، وَتُهَنِّئُها بِسَلامَتِها وَاجْتِماعِ شَمْلِها بِأَخِيها.

٨ـ قِصَّةُ الأَمِيرَةِ

وَاشْتَدَّ الشَّوْقُ إِلَى تَعَرُّفِ قِصَّتِها. فَابْتَدَرَها أَخُوها قَائِلًا:

«لَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبارُكِ يَا «وادِعَةُ» حَتَّى كَادَ يَدِبُّ الْيَأْسُ إِلَيْنَا مِنْ عَوْدَتِكِ بَعْدَ أَنْ أَعْيَانَا الْبَحْثُ عَنْكِ فِى كُلِّ مَكَانٍ، وَلاَ تَسْأَلِى عمَّا انْتَابَ أَبَاكِ الْمَلِكَ «عاصِمًا» مِنَ الأَلَمِ، فَقَدْ بَرَّحَ بِهِ الْحُزْنُ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ الْأَسَى؛ فَأَسْلَمَاهُ إِلَى الْمَرَضِ.

ثُمَّ زَارَنِى فِى نَوْمِى شَيْخٌ مَهِيبُ الطَّلْعَةِ، رَائِعُ السَّمْتِ، فابْتَدَرَنِى بِالتَّحِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَنِى أَنْ أُسْرِعَ بِالرَّحِيلِ مَعَ نُخْبَةٍ منْ جَيْشِى؛ لأَنَّ

مُفَاجَـأَةً سَـعِيدَةً تَنْتَظِرُنِـى بَعْدَ أَيَّـامٍ. فَلَمَّا قُمْتُ مِنْ نَوْمِى حَسِـبْتُ مَـا رَأَيْتُـه فِى الْمَنَامِ أَضْغَاثَ أَحْـلامٍ، ثُمَّ تَكَرَّرَتِ الرُّؤْيَـا فِى الْيَوْمَيْنِ التَّالِيَيْـنِ. فَلَمَّا قَصَصْتُهـا عَلَى أَبِى أَخْبَرَنِى أَنَّـهُ رَأَى مِثْلَ هذِهِ الرُّؤْيَا فِى ثَلَاثِ اللَّيالِى الْماضِيَة: أَمْسِ وَأَوَّلَ أَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ، وَسَمِعَ الشَّيْخَ يَأمُرُهُ أَنْ يُعِدَّ السَّفائِنَ لِتَرْحِيلِ وَلَدِهِ فِى أَقْرَبِ وَقْتٍ مُسْتَطَاعٍ، وَيُبَشِّرُهُ بِمُفَاجَأَةٍ سَعِيدَةٍ تَنْتَظِرُهُما فِى نِهَايَةِ هذِهِ الرِّحْلَةِ.

فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِى، وَارْتَاحَ بَالِى لِمَا سَمِعْتُه مِنْ أبى، وَأَبْحَرْتُ فى صَباحِ الْيَوْمِ التَّالِى مَعَ نُخْبَةٍ مِنْ أَصْفِيائِى، وانْتَهَتِ الرِّحْلَةُ العَاصِفَةُ بِهذِهِ الْخَاتِمَةِ السَّعِيدَةِ. فَخبِّرِينى ـ يَا أُخْتَاهُ ـ مَاذَا حَجَبَكِ عَنَّا طُولَ هذا الْوَقْتِ؟».

فَقالَتْ:

«كُنْتُ نائِمَةً فى مَخْدَعِى بحَدِيقَةِ قَصْرِ الرَّبيعِ الْمُطِلَّةِ عَلَى الْبَحْرِ، وكانتِ اللَّيْلَةُ قَمْراءَ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمِى إلَّا فى أَصِيلِ الْيَوْمِ التَّالى. ولا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِى حِينَ رَأَيْتُ جماعَةً مِنَ الْغُرَباءِ يُحِيطُونَ بِى، ويَتَلَطَّفُونَ فى تَسْكِينِ ثائِرَتى، ولا يألُونَ جَهْدًا فى جَلْبِ الطُّمَأْنِينَةِ إلى نَفْسِى. ثُمَّ يَقُولُ لى كَبِيرُهُمْ مُتَوَدِّدًا:

«لا تَخْشَىْ ـ أَيَّتُها الأَمِيرَةُ ـ ولا تَيْئَسِى، فَلَنْ يَنالَكِ أذًى ولا سُوءٌ. إنَّ السَّعادَةَ لَتَنْتَظِرُكِ. فَقَدِ اخْتارَكِ مَوْلانا «مَرْمُوشٌ» مَلِيكُ الْهِنْدِ الأَعْظَمُ، لِتَكُونى عَرُوسَهُ. فَلَمَّا ضَنَّ عَلَيْهِ أَبُوكِ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ، عَرَضَ الأَمْرَ عَلَى وَزِيرِهِ «أُنْبُوشٍ»؛ فأشارَ عَلَيْهِ باخْتِطافِكِ. ولَنْ تَلْقَىْ عِنْدَ مَلِيكِنا غَيْرَ السَّعادَةِ والْهَناءِ».

فَتَوَسَّلْتُ إلَيْهِمْ أنْ يُعِيدُونى إلَى أَبِى، فَلَمْ يُصْغِ إلى رَجائِى أحَدٌ.

فَأَعْمَلْتُ الْحِيلَةَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ، وسَأَلْتُ اللهَ أنْ يُلْهِمَنِى وَجْهَ الصَّوابِ، ويُنْجِيَنِى مِنْ أَسْرِ هؤُلاءِ الْغاصِبِينَ.

وسارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ فى الْبَحْرِ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ حَلَّتْ فى صَباحِ الْيَوْمِ التَّالى بِشاطِئِ جَزيرَةٍ نائِيَةٍ، فاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أنْ نَسْتَرِيحَ فِيها قَليلًا، ثُمَّ نسْتَأنِفَ سَيْرَنا فى صَباحِ الْيَوْمِ التَّالى.

وقَضَيْنا سَاعَةً مِنَ النَّهارِ تَفَرَّقَ فِيها أُولَئِكَ الرِّجالُ يَجُوبُونَ أَنْحاءَ الْجَزِيرَةِ، وبَقِيتُ مُنْفَرِدَةً إِلَى الْمَساءِ دُونَ أَنْ يَعُودَ مِنْهُمْ أَحَدٌ! فَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، ونِمْتُ بَيْنَ أَغْصانِها إِلَى الصَّباحِ وأنا أُفَكِّرُ فى وَسِيلَةٍ لِلْهَرَبِ مِنْها.

ولَبِثْتُ فى الْجَزِيرَةِ أَيَّامًا آكُلُ مِنْ ثِمارِها، وأَشْرَبُ مِنْ مائِها، وأنامُ فَوْقَ أَشْجارِها، وأَجُوسُ فى أَنْحائِها، حَتَّى ساقَتْنِى قَدَماىَ ـ ذاتَ يَوْمٍ ـ إِلَى غابةٍ كَبِيرَةٍ انْتَهَى بِىَ السَّيْرُ فِيها إِلَى القَصْرِ السَّعِيدِ».

٩ـ تَرْحِيبُ البَبَّغاءِ

وَهُنا حَدَّثَتْهُمُ الأَمِيرَةُ عنْ تِمْثالِ الْفَتاةِ حَدِيثًا يَكادُ لَا يَخْتَلِفُ عَمَّا حَدَّثَهُمْ بِهِ الأَمِيرُ «فاضِلٌ» وَقَصَّتْ عَلَيْهِمْ كَيْفَ أَخَذَتْ مِفْتاحَ الْقَصْرِ السَّعِيدِ دُونَ أَنْ يُغْرِيَها الطَّمَعُ بِاغْتِصابِ حُلِيِّها وَانْتِهابِ لآلِئِهَا، وَكَيْفَ فُتِحَ لَها بابُ الْقَصْرِ السَّعِيدِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ، وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَتْها الْبَبَّغاءُ «صَبِيحَةُ»: حارِسَةُ الْقَصْرِ، فَرْحانَةً بِمَقْدَمِها، وَكَيْفَ أَفْضَتْ إِلَيْها بِما لَقِيَهُ خاطِفُوها مِنْ جَزاءٍ عادِلٍ. قالَتِ الْبَبَّغاءُ:

«كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّكِ أَنْ يُعَرِّجَ أَعْوانُ «مَرْمُوش» عَلَى هذِهِ الْجَزِيرَةِ بَعْدَ أَنْ نَثَرُوا فى حُجْرَةِ نَوْمِكِ عِطْرًا مُرْقِدًا (مُنَوِّمًا) ثُمَّ خَطفُوكِ مِنْ قَصْرِ الرَّبِيعِ دُونَ أَنْ يَفْطُنَ إِلَى خَدِيعَتِهِمْ أَحَدٌ؛ لِيُقَدِّمُوكِ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ «مَرْمُوشٍ».

فَسَأَلْتُ الْبَبَّغاءَ:

«وَماذا كانَ مَصِيرُ الْخاطِفِينَ؟».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«تَفَرَّقُوا يَتَنَزَّهُونَ فى أَرْجاءِ الْجَزِيرَةِ، وَشَغَلَهُمْ طِيبُ جَوِّها، وَجَمالُ هَوائِها، وَلَذِيذُ ثِمارِها، عَنِ الْعَوْدَةِ إِلى بِلادِهِمْ، وَساقَهُمْ سُوءُ حَظِّهِمْ - واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ - إِلَى تِمْثالِ الْفَتاةِ، فَشَغَلَتْهُمْ حُلِيُّها وَنَفائِسُها عَنْ مِفْتاحِ الْقَصْرِ، وَأَنْسَتْهُمْ ما قَرَءُوا مِنْ نَذِيرٍ وَتَحْذِيرٍ. فَقَتَلَهُمُ الْحارِسانِ، وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الضَّوارِى (الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ) وَالْحَشَراتُ. فَالْتَهَمَتْهُمْ فى لَحَظاتٍ. وَهكَذا هَلَكُوا مُتَفَرِّقِينَ دُونَ أَنْ يَفْطُنَ أَحَدُهُمْ لِمَصْرَعِ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الطّامِعِينَ».

وَسَأَلْتُ الْبَبَّغاءَ:

«كَيْفَ يُتاحُ لِىَ الْخُرُوجُ مِنْ هذِهِ الْجَزِيرَةِ؟».

فَقالَتْ:

«لِكلِّ شَـيْءٍ أَوانٌ، وَلِكُلِّ زَرْعٍ إِبَّانٌ (وَقْتٌ)، وَسَيَتِمُّ خَلاصُكِ مِنْ كُرْبَتِكِ، وَإِيقاظُكِ مِنْ نَوْمَتِكِ عَلَى يَدِ أَمِيرٍ فاضِلٍ شُجاعٍ، سَيِّدٍ مُطاعٍ، كَرِيمِ الأَصْلِ، راجِحِ الْعَقْلِ. فَاصْبِرِى يا فتاةُ، وَما صَبْرُكِ إِلَّا باللهِ».

١٠ ـ نَوْمٌ وَيَقَظَةٌ

وَهُنا شَـعَرْتُ بِحاجَةٍ إِلى النَّوْمِ، فَأَلْقَيْتُ بِجِسْـمِيَ الْمَجْهُودِ عَلَى سَـرِيرٍ قَرِيبٍ، وَأَسْلَمْتُ جَفْنَيَّ لِلرُّقادِ، وَمازِلْتُ نائِمَةً حَتَّى أَيْقَظَنِى هذا الأَمِيرُ الْفاضِلُ مِنْ سُباتِيَ الْعَمِيقِ».

ثُـمَّ قَصَّـتِ الْفَتاةُ مـا دارَ بَيْنَها وبَيْـنَ الأَمِيرِ «فاضِـلٍ» مِنْ حِوارٍ، وَكَيْفَ اسْـتَخْفَى عَنْ عَيْنَيْها، وَغابَ عَنْ ناظِرَيْها، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْها النَّـوْمُ مَرَّةً أُخْـرَى. فَلَمَّا انْتَبَهَتْ مِـنْ رُقادِها، رَأَتِ الْقَصْرَ السَّـعِيدَ قَـدِ انْتَقَلَ إِلى هذِهِ الْمَدِينَةِ بِجِوارِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، وَسَـمِعَتِ الْبَبَّغاءَ «صَبِيحَةَ» تُنادِيها، وَتَرْجُوها أَنْ تُسْرِعَ إِلى لِقاءِ أَخِيها، وَتَدْعُوَهُ ـ مَعَ جُنْدِهِ وَأَصْحابِهِ ـ لِزِيارَةِ الْقَصْرِ السَّـعِيدِ، لِيَتِمَّ عَلَى أَيْدِيهِمْ ما بَدَءُوهُ مِنْ صَنِيعٍ مَجِيدٍ.

الفَصْلُ السَّابِعُ

١ ـ أَسْماءُ الأُمَراءِ

كانَ الْقَصْرُ السَّعِيدُ ـ كَما رَآهُ زائِرُوهُ ـ آيةً مِنْ آياتِ الْفَنِّ العالى والذَّوْقِ السَّلِيمِ. فَلا عَجَبَ إِذا دَهِشَ الأُمَراءُ والْجُنْدُ حِينَ ارْتادُوا حَدائِقَهُ وأَبْهاءَهُ، وَشَهِدُوا أَضْواءَهُ ولَأْلاءَهُ. وَلا تَسَلْ عَنِ ابْتِهاجِهِمْ بما شَهِدُوهُ مِنْ جَمالِ تَصاوِيرِهِ، وَبَراعَةِ هَنْدَسَتِهِ. وَقَدْ قَضَى الأُمَراءُ أُمْسِيَّةً حافِلَةً بِجالِباتِ الْبَهْجَةِ، وَباعِثاتِ السُّرُورِ، وَقَدْ حَفَلَتْ مَوائِدُهُمْ بِما لَذَّ وَطابَ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ. فَظَلَّ الأُمَراءُ يَسْمُرُونَ جانِبًا مِنَ اللَّيْلِ.

تَسْأَلُنِى: أَىُّ حَدِيثٍ كانَ مَوْضُوعَ حِوارِهِمْ، ومَدارَ سَمَرِهِمْ؟ وَما أَحْسَبُكَ إِلَّا عارِفًا بجَوابِ سُؤَالِكَ، فَلَنْ يَغِيبَ عَنْ فِطْنَتِكَ أَنَّ حِوارَهُمْ لَمْ يَعْدُ الْحَديثَ عَمَّا لاقَوْهُ فى سَفَرِهِمْ مِنْ مُدْهِشاتٍ وَغَرائِبَ، وَما تَعَرَّضُوا لهُ فى رِحْلَتِهِمْ مِنْ كَوارِثَ وَمَصائِبَ، وَكَيْفَ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ بَعْدَ أَنْ طَوَّحَتْ بِهِمُ الْأَقْدارُ فى مَطارِحِ الأَرْضِ؛ فَنَسُوا بِذلِكَ كُلَّ ما اعْتَرَضَهُمْ مِنْ مَصائِبَ ومِحَنٍ. ثُمَّ

عَرَّجُوا عَلَى ما أَصابَ مَدِينَةَ النُّحاسِ، وَما لَحِقَ بِسَاكِنِيها مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوانٍ وَناسٍ. وَراحُوا يُقَلِّبُونَ الأَمْرَ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى سَبَبٍ يُعَوِّلُونَ عَلَيْهِ، أَوْ تَعْلِيلٍ تَرْتاحُ عُقُولُهُمْ إِلَيْهِ.

٢ـ كَشْفُ السِّتارِ

وَهُنا قالَتِ الْبَبَّغاءُ «صَبيحَةُ»:

«عِنْدِى جَوابُ ما تَسْأَلونَ، فَهَلْ أَنْتُمْ لِما أَقُولُ سامِعُونَ؟».

فَقالوا لَها فى شَوْقٍ ولَهْفَةٍ:

«آذانُنا لِحَدِيثِكِ سامِعَةٌ، وَقُلُوبُنا لِما تَقُولِينَ واعِيَةٌ».

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ:

«لَعَلَّ الأَمِيرَيْنِ «فاضِلا» وَأُخْتَهُ «رائِعَةَ» لا يَعْرِفانِ الكَثِيرَ عَنِ الْمَلِكِ «فُرْهُودٍ» : جَدِّهِما لأَبِيهِما، وَلا عَنِ ابْنِ عَمِّهِ الأَمِيرِ «سَوْدَلٍ» : جَدِّهِما لأُمِّهِما. وَقَدْ آنَ لَهُما أَنْ يَعْرِفا ما كانَ لِجَدِّهِما «فُرْهُود» مِن شَأْنٍ عَظِيمٍ، وفَضْلٍ عَمِيمٍ؛ فَقَدْ ذاعَ صِيتُهُ فى الْبِلادِ؛ بِما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ عَدْلٍ وَحَزْمٍ وَرَشادٍ، وَكانَ مَوْضِعَ إِجْلالِ مُلُوكِ عَصْرِهِ قاطِبَةً، وَكانَ مِنَ الْمُعَمَّرِينَ.

٣ ـ رُؤْيا «فُرْهُودٍ»

وَقَدْ رَأَى فى نَوْمِهِ قُبَيْلَ وَفاتِهِ دَابَّةً غَرِيبَةَ الشَّكْلِ، لَها ذَيْلُ ثُعْبَانٍ وَجِسْمُ سَمَكَةٍ، وَجَناحا نَسْرٍ، وَوَجْهُ بُومَةٍ. وَشَهِدَها تَطِيرُ فى الْفَضاءِ حَتَّى تَبْلُغَ ذِرْوَةَ الْجَبَلِ، ثُمَّ تَعُودُ مُنْدَفِعَةً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَحُلُّ فى حَدِيقَةِ قَصْرِهِ، فَتَنْعَبُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. وَسَمِعَ لِتَنْعابِها الْكَرِيهِ صَوْتًا يُصِمُّ الآذانَ. وَرَأَى الْحَدِيقَةَ قَدْ ذَوَتْ أَزْهارُها، وَصُوِّحَ نَبْتُها، وَتَهاوَى طَيْرُها، وَدَبَّ الْمَوْتُ فى أَرْجائِها!!

فانْتبَـهَ الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» مِـنْ نَوْمِهِ مَذْعُورًا، وَدَعا ابْنَ عَمِّهِ الأَمِيرَ «سَوْدَلا»، وَقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْياهُ، فَقالَ لَهُ «سَوْدَلُ»:

«لا مَعْدَى لَنا عنِ اسْتِشارَةِ «صَفْصافَةَ» الْحَكِيمِ؛ فَعِنْدَهُ تَأْوِيلُ هذِهِ الرُّؤْيا، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يُشِيرَ عَلَيْنا بِالرَّأْيِ الرَّاجِحِ».

وَكانَ «صَفْصافَةُ» سـاحِرَ عَصْرِهِ، وَكان الْمَلِكُ «فُرْهُودٌ» يُصْفِيهِ الْـوُدَّ مُنْـذُ طُفُولَتِهِما إِلَى أَنْ بَلَغا سِـنَّ الشَّـيْخُوخَةِ، فَلَمَّا قَصَّ رُؤْياهُ عَلَيْهِ، أَطْرَقَ «صَفْصافَةُ» مُتَجَهِّمًا، وقالَ لِمَلِيكِهِ:

«يا لَهُ مِنْ حُلْمٍ خَطِيرٍ، يَحْمِلُ فى ثَناياهُ أَفْدَحَ النَّكَباتِ! وَلا مَعْدَى لَنـا عَنِ التَّجَمُّلِ والصَّبْـرِ حَتى يَنْفُذَ قَضاءُ اللهِ فِينا، وَتَجْرِىَ أَحْكامُهُ عَـلَى ذَوِينـا. وَلَنْ يَثْنِيَنِـى عائِقٌ عَنِ السَّـعْيِ فى تَهْوِينِ وَقْعِـهِ الْأَلِيمِ، وتَخْفِيـفِ ضَرَرِهِ الْجَسِـيمِ ما وَسِـعَنِىَ الْجُهْـدُ، وَسـاعَفَنِىَ الْعِلْمُ. فَأَمْهِلْنى شَهْرَيْنِ، لَعَلِّى أُوَفَّقُ فى مَسْعاىَ».

وَغابَ «صَفْصافَةُ» عَنْ مَلِيكِهِ شَـهْرَيْنِ، ثُـمَّ عادَ إِلَيْهِ، وَقالَ لَهُ فى لَهْجَةِ الْمُطْمَئِنِّ الْواثِقِ:

«كُلُّ شَـىْءٍ حَسَنٌ إِذا حَسُنَتْ نِهايَتُهُ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكارِثَةَ الَّتى تَحُـلُّ بِهذِهِ الْمَدِينَةِ لَنْ يَزِيدَ عُمْرُها عَـلَى عامٍ وَنِصْفِ عامٍ، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى أَهْلِيها الأَمْنُ والسَّـلامُ بَعْـدَ أَنْ يَتَعَرَّضَ ثَلاثَةٌ مِـنْ كِرامِ الأُمَراءِ

لِلْحِمامِ (لِلْمَوْتِ). وَقَدْ بَذَلْتُ ما فى وُسْعِى لِتَأْمِينِ الْمَدِينَةِ فى خِلالِ هذِهِ الْمِحْنَةِ مِنْ كلِّ طامِعٍ فى غَزْوِها، أوْ مُتَطَلِّعٍ لِنَهْبِها وَسَلْبِها. فَلا يُساوِرْكَ الْهَمُّ، وَلا يُبَرِّحْ بِكَ الْغَمُّ. وَفَوِّضْ أَمْرَكَ لِخالِقِ الْأَرْضِ والسَّماءِ، وَرازِقِ الطَّيْرِ فى الْهَواءِ؛ فَهُوَ أَبَرُّ بِنا وَأَرْحَمُ، وَأَرْفَقُ عَلَيْنا وَأَكْرَمُ».

فَسَأَلَهُ «فُرْهُودٌ»:

«أَقَرِيبَةٌ هذِهِ الْمِحْنَةُ، أَمْ بَعِيدَةٌ؟».

فَأَجابَهُ «صَفْصافَةُ»:

«لَنْ تَقَعَ هذِهِ الْمِحْنَةُ فى عَهْدِكَ، بَلْ فى عهْدِ «أُسامَةَ» وَلَدِكَ».

٤ـ فَضْلُ «صَفْصافَةَ»

وَقَدْ صَدَقَ «صَفْصافَةُ» فِيما قالَ، وَبَرَّ بما وَعَدَ؛ وَكانَ لِبَراعَتِهِ أَحْمَدُ الأَثَرِ فى تَأْمِينِ الطَّرِيقِ، وَأَكْبَرُ الْجُهْدِ فى تَهْيِئَةِ الوَسائِلِ لاجْتِماعِ الشَّمْلِ؛ فَقَدْ كانَ لَهُ الْفَضْلُ فى إِقامَةِ سُورِ هذِهِ المَدِينَةِ الْعالى، وَتَزْوِيدِهِ بما نَقَشَهُ مِنْ طَلاسِمَ وَأَرْصادٍ لِصَدِّ الْغُزاةِ وَالرُّوَّادِ، ومَا أَعَدَّهُ مِنْ فاتِناتِ الْجَوارِى الَّتى تَلُوحُ لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ

بِاقْتِحامِ السُّورِ، فَيَنْدَفِعُ نَحْوَهُنَّ، وَتُدَقُّ عُنُقُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِنَّ. وَبِهذا ضَمِنَ أَلَّا يَفْتَحَ الْمَدِينَةَ إِلَّا ماجِدٌ كَرِيمٌ، جَدِيرٌ بِتَفْرِيجِ كُرْبَتِها، وَتَخْلِيصِها مِنْ مِحْنَتِها.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هذا الصُّنْعِ الْمَجِيدِ؛ فَأَنْشَأَ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ هذا الْقَصْرَ السَّعِيدَ، وَأَقامَنِى وَإِخْوَتِى مِنَ الْجِنِّ فِيهِ؛ لِنَتَوَلَّى حِراسَتَهُ، فكانَ مَوْئِلًا لِلأَمِيرَيْنِ مَكِينًا، وَحِصْنًا حَصِينًا. وَقَدْ وَضَعَ فِيهِ تِمْثالَ الْفتاةِ الْحَسْناءِ الَّتى رَآها الأمِيرانِ، وَنَثَرَ حَوْلَها نَفِيسَ اللُّؤْلُؤِ والْمَرْجانِ؛ لِتُغْرِىَ الطَّامِعِينَ؛ حَتَّى لا يَدْخُلَ الْقَصْرَ إِلَّا مُخْلِصٌ أَمِينٌ».

وَلَمَّا انْتَهَتْ «صَبِيحَةُ» مِنْ حَدِيثِها، سَأَلَها الأُمَراءُ الأَرْبَعَةُ مُتَلَهِّفِينَ:

«وَكَيْفَ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ؟ وَأَىُّ ساحِرٍ دَبَّرَ هذِهِ الْفاجِعَةَ؟».

فَقالَ الْأَمِيرُ «فاضِلٌ»:

«لَا رَيْبَ أَنَّهُ الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» الْحَقُودُ وَوَزِيرُهُ «أُنْبُوشٌ»، فَكِلاهُما عَدُوٌّ لَنا لَدُودٌ، وَهُما بِأَمْثالِ هذِهِ الدَّسائِسِ أَخْبَرُ، وَبِتَدْبِيرِ هذِهِ الْمَكايِدِ أَبْصَرُ، وَعَلَى تَنْفِيذِهَا أَقْدَرُ!».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«لَوِ اسْتَطاعَ «مَرْمُوشٌ» ذلِكَ لَما تَوانَى وَلا قَصَّرَ، وَلا تَرَدَّدَ وَلا تَأَخَّرَ، وَلكِنَّهُ أَعْجَزُ عَنْ بُلُوغِ هذِهِ الْغايَةِ وَأَصْغَرُ، وَأَقَلُّ وَأَحْقَرُ. كَلَّا أَيُّها الإِخْوانُ، فَلَيْسَ لَهُ فى هذِهِ النَّكْبَةِ شَانٌ، وَلَا طاقَةَ لَهُ بِتَدْبِيرِها وَلا يَدانِ؛ بَلْ هِيَ مِحْنَةٌ غَيْرُ مُتَعَمَّدَةٍ وَلا مَقْصُودَةٍ. وَلَوْلَا لُطْفُ اللهِ، لَضاعَ كُلُّ أَمَلٍ فى انْفِراجِ الأَزْمَةِ، وَكَشْفِ الْغُمَّةِ».

فَسأَلَها الأُمَراءُ مَدْهُوشِينَ:

«كَيْفَ تَقُولِينَ؟ وَماذا تَعْنِينَ؟ بِرَبِّكِ إِلَّا ما أَفْصَحْتِ عَمَّا أَلْغَزْتِ، وَأَوْضَحْتِ لَنا ما أَبْهَمْتِ».

٥ـ السَّاحِرُ «عَوْسَجَةُ»

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«كانَ «صَفْصافَةُ» فى عَصْرِهِ ساحِرَ الْهِنْدِ الأَكْبَرَ، كَما أَسْلَفْتُ لَكُمُ الْقَوْلَ. فَلَما ماتَ ظَهَرَ ساحِرٌ آخَرُ لَا يَقِلُّ عَنْ «صفْصافَةَ» قُدْرَةً وَمَهارَةً، وَخِبْرَةً بِالسِّحْرِ وَبَصارَةً. إِنَّهُ «عَوْسَجَةُ» السَّاحِرُ. وَكانَ أَبُوهُ وَزِيرَ الْمَلِكِ «صَلْدَمٍ». وَكانَ هذا الْمَلِكُ كَما تَعْلَمُونَ خادِعًا ماكِرًا، مُسْتَبِدًّا جائِرًا، لَمْ يَتَوَرَّعْ عِنِ اغْتِيالِ وَزِيرِهِ النَّاصِحِ الأَمِينِ

بَعْدَ أَنْ أَخْلَصَ لَهُ النُّصْحَ وَأَصْفاهُ الْوُدَّ. وَقَدْ شَهِدَ «عَوْسَجَةُ» ـ وَهُوَ فى مُقْتَبَلِ صِباهُ ـ كَيْفَ صَرَعَ «صَلْدَمٌ» الْغادِرُ أَباهُ. فَهَرَبَ «عَوْسَجَةُ» إِلى بِلَادِ التُّبَّتِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى الانْتِقامِ مِنْ قاتِلِ أَبِيهِ، وَما زالَ يُواصِلُ اللَّيْلَ بالنَّهارِ حَتَّى بَرَعَ فى فُنُونِ السِّحْرِ، وَفاقَ أَساتِذَتَهُ وَمُعَلِّمِيهِ، فَأَصْبَحَ بَعْدَ مَوْتِ «صَفْصافَةَ» ساحِرَ الْهِنْدِ الأَوْحَدَ.

٦ ـ بُوقُ «عَوْسَجَةَ»

فَلَمَّا بَلَغَ هذِهِ الْمَنْزِلَةَ عَكَفَ عَلَى تَدْبِيرِ وَسِيلَةٍ لِلانْتِقامِ مِنْ قاتِلِ أَبِيهِ، فَلَبِثَ عِشْرِينَ عامًا كامِلَةً عاكِفًا عَلَى صُنْعِ بُوقِهِ الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّهُ أَعَدَّ الْعُدَّةَ لِلسَّفَرِ إِلَى مَدِينَةِ «صَلْدَمٍ»: قاتِلِ أَبِيهِ. وَمازالَ يُواصِلُ سَيْرَهُ حَتَّى بَلَغَ مُنْتَصَفَ طَرِيقِهِ إِلَيْهِ. وَشاءَتِ الأَقْدَارُ أَنْ يَسْتَقِرَّ بِهِ الْمَقامُ عَلَى ساحِلِ هذِهِ الْمَدِينَةِ، فَيَسْتَمِعَ إِلَى جَماعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ عَدُوِّهِ، فَيَتَعَرَّفَ مِنْ حَدِيثِهِمْ مَصْرَعَ «صَلْدَمٍ»؛ وَكَيْفَ زَلَّتْ قَدَمُهُ وَهُوَ يُطارِدُ أَحَدَ الْغِزْلانِ، فَهَوَى مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ، وَتَناثَرَتْ أَشْلاءُ جِسْمِهِ، واخْتَلَطَ لَحْمُهُ بِعَظْمِهِ. وَهُنا زال غَضَبُ «عَوْسَجَةَ» وانْصَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الانْتِقامِ،

وَخَشِىَ أَنْ يَقَعَ الْبُوقُ الذَّهَبِىُّ المَسْحُورُ فى يَدِ غَيْرِهِ، فَيُسِىءَ بِهِ ـ عَنْ غَيْـرِ قَصْدٍ ـ إِلَى الآمِنِينَ، فَأَلْقَى بِـهِ إِلَى الْبَحْرِ، وَكَرَّ إِلى وَطَنِهِ راجِعًا، فَماتَ فى طَرِيقِه.

٧ـ خَصَائِصُ الْبُوقِ

فَسَأَلَها الأُمَراءُ:

«فَأَىُّ سِـرٍّ أَوْدَعَهُ السَّـاحِرُ فى هذا الْبُوقِ الَّذِى أَعَدَّهُ لِيَنْتَقِمَ بِهِ مِنْ عَدُوِّهِ؟».

فَقالَتْ «صَبيحَةُ»:

«لَقَدْ أَوْدَعَ فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ السِّحْرِ مالا يَتَخَيَّلُهُ الْعَقْلُ؛ فَقَدْ يَسَّرَ لِنافِخِهِ مِنْ فُنُونِ الانْتِقامِ مالا يَخْطُرُ عَلَى الْبالِ، وَأَتاحَ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى النَّسْخِ والْمَسْخِ والْفَسْخِ والرَّسْخِ».

فَسَأَلَها الأُمَراءُ مُتَحَيِّرِينَ:

«أَفْصِحِي بِرَبِّكِ عَما تَقُولِينَ، فَما نَحْنُ عَلَى فَهْمِ أَلْغازِكِ بِقادِرِينَ. ماذا تَعْنِينَ بِالنَّسْخِ وَالْمَسْخِ والْفَسْخِ والرَّسْخِ؟».

فَقالَتْ «صَبيحَةُ»:

«فى الْمَرْتَبَةِ الأُولَى يَنْتَقِلُ الآدَمِيُّ مِنْ صُورَتِهِ إلى صُورَةٍ أَعْلَى وأَشْرَفَ. وَفى الثَّانِيَةِ يَنْتَقِلُ إلى صُورَةِ إحْدَى الْبَهائِمِ. وَفى الثَّالِثَةِ يَنْتَقِلُ إلى صُورَةِ بَعْضِ الْحَشَراتِ. وَفى الرَّابِعَةِ يَتَحَوَّلُ نَباتًا أَوْ جَمادًا».

فَصَرَخَ الأُمَراءُ مَدْهُوشِينَ:

«وَكَيْفَ يَتِمُّ ذلِك لِمَنْ يَنْفُخُ فى الْبُوقِ؟».

فَقالَتْ «صَبيحَةُ»:

«حَسْبُهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فى ذِهْنِهِ الصُّورَةَ الَّتِى يُرِيدُ أَنْ يُحَوِّلَ إلَيْها مَنْ يَشاءُ، أَوْ يَذْكُرَ عَلَى لِسانِهِ اسْمَ حَيَوانٍ أَوْ نَباتٍ أَوْ مَعْدِنٍ ـ خَسِيسًا

كانَ أَوْ حَقِيرًا ـ فَلا تَنْقَضِى لَحَظَاتٌ قَلِيلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْفُخَ فى الْبُوقِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى يَبْلُغَ النَّافِخُ مُرادَهُ، وَيَتِمَّ لَهُ ما أرادَهُ!».

فَقالَ «إقْبالُ»:

«لَقَدْ أَخْبَرْتِنا أنَّ «عَوْسَجَةَ» قَذَفَ الْبُوقَ فى الْبَحْرِ، فَماذا حَدَثَ بَعْدَ ذلِكِ؟».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«بَلِعَتْهُ سَمَكَةٌ، وَجاءَ صَيَّادٌ فاصْطادَها، وَمَرَّ بِالصَّيَّادِ نَسْرٌ، فانْتهَزَ مِنَ الصَّيَّادِ غَفْلَةً، فخَطِفَ السَّمَكَةَ، ثُمَّ طارَ بها إلى قِمَّةِ الْجَبَلِ، فَرَأَى ثُلَّةً مِنَ النَّاسِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ عُشِّهِ، فَعادَ بِها أدْراجَهُ، واسْتَقَرَّ عَلَى شَجَرَةٍ عالِيَةٍ فى حَدِيقَةِ الْمَلِكِ، فَأَكَلَ السَّمَكَةَ وَتَرَكَ الْبُوقَ، وَلَمْ يَلْبَثِ الْبُوقُ أنْ سَقَطَ إلى الأَرْضِ. وَجاءَ وَلَدُ الْبُسْتانِىِّ فى الْيَوْمِ التَّالى فَرَأَى الْبُوقَ الذَّهَبِىَّ الصَّغِيرَ، فَأُعْجِبَ بِمَنْظَرِهِ، وَنَفخَ فِيهِ ـ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ـ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَإذا كُلُّ مَنْ بِالْمَدِينَةِ تَماثِيلُ مِنَ النُّحاسِ!».

فَسَأَلَتْها «رائِعَةُ»:

«وَلِماذا تَحَوَّلُوا نُحاسًا وَلَمْ يَتَحَوَّلُوا شَيْئًا آخَرَ؟».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«كانَ وَلَدُ الْبُسْتانِىِّ يَحْسَبُ الْبُوقَ الذَّهَبِىَّ بُوقًا مِنَ النُّحَاسِ، فَاتَّجَهَ ذِهْنُهُ إلى هذَا الْمَعْدِنِ».

فَقالَ «فاضِلٌ»:

«الآنَ ظَهَرَ أَنَّ «مَرْمُوشًا» لا يَدَ لَهُ فى هَذِهِ النَّكْبَةِ».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«بَلْ كانَ لَهُ يَدٌ فى تَأْمِينِ الْمَدِينَةِ وَسَلامَتِها!».

فَقالَتْ «وادِعَةُ»:

«وَكَيْفَ كانَ ذلِكَ؟!».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«لَوْلا قُدُومُ جَيْشِهِ اللَّجِبِ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ لَمَا فَكَّرَ أَحَدٌ فى إغْلاقِ أَبْوابِها لِرَدِّ عُدْوَانِ مَنْ يُفَكِّرُ فى غَزْوِها وانْتِهَابِ كُنوزِهَا.

فَقَدْ حاوَلَ «مَرْمُوشٌ» أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ فَعَجَزَ عَنْ ذلِكَ، وَرَجَعَ خَائِبًا مَدْحُورًا. وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ غَيْرُ الأَمِيرِ «إِقْبالٍ» عَلَى اقْتِحَامِ سُورِهَا الْعَالى، وَفَتْحِ بَابِهَا الْمَنِيعِ».

فَقالَتْ «رائِعَةُ»:

«رُبَّ ضارَّةٍ نافِعَةٌ».

وَقالَ «إِقْبالٌ»:

«أَلا سَبِيلَ إِلى تَخْلِيصِ الْمَدِينَةِ مِنْ مِحْنَتِها وتَفْرِيجِ كُرْبَتِها؟».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«بَلَى، وَقَدِ اجْتَمَعَتِ الأَسْبابُ، وَحانَتِ الْفُرْصَةُ لإِنْجازِ هذا الْمُهِمِّ الْعَظِيمِ!».

فَقالَ «إِقْبالُ»:

«وَكَيْفَ السَّبِيلُ إلى ذلِكَ؟».

فَقالَتْ «صَبِيحَةُ»:

«لَمْ يَبْقَ عَلَى كَشْفِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ غَيْرُ ساعاتٍ وَدَقائِقَ، ثُمَّ يَنْجَلِي لأَعْيُنِكُمْ صِدْقُ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنْ حَقائِقَ».

وأَرَادَ الأُمَراءُ أَنْ يَتَمادَوْا فى أَسْئِلَتِهِمْ، لَوْلَا أَنَّ سِنَةً مِنَ النَّوْمِ طافَتْ بِأَجْفانِهِمْ، فَأَسْلَمَتْهُمْ إِلَى الرُّقادِ!

فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ، اسْتَيْقَظَ الأَمِيرُ «إِقْبالُ»، فَجَالَ فى جَنَباتِ الْقَصْرِ، وَقَدْ شَغَلَهُ التَّفْكِيرُ فى إِنْقاذِ الْمَدِينَةِ عَنْ كُلِّ ما يَحْوِيهِ مِنْ نَفائِسَ وَتُحَفٍ، فَمَشَى إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، فَرَآهَا قَدِ اتَّصَلَتْ بِحَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، فَوَاصَلَ سَيْرَهُ قَلِيلًا، وَحانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ، فَرَأَى الْبُوقَ الذَّهَبِيَّ الصَّغِيرَ، فَالْتَقَطَهُ وَعادَ بِهِ أَدْرَاجَهُ؛ لِيُحَدِّثَ أَصْحَابَهُ بِما رَآهُ.

٨ـ خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ حُجْرَتِهِمْ رَأَى بُوقَ «عَوْسَجَةَ» يَنْجَذِبُ إِلَى شَفَتَيْهِ؛ فَلَمْ يَتَمالَكْ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ، وَهُوَ مَشْغُولُ الْبالِ بِرَدِّ الْحَياةِ إِلَى التَّماثِيلِ الْجامِدَةِ.

فَما إِنْ أَتَمَّ نَفْخَهُ مَرَّاتٍ ثَلاثًا حَتَّى تَحَقَّقَتِ الْآمالُ عَلَى يَدَيْهِ، وَدَبَّتِ الْحَرَكَةُ فِى تَماثِيلِ النُّحاسِ، وعَادَ إِلَى الْحَياةِ كُلُّ ما فِى الْمَدِينَةِ مِنْ حَيَوانٍ وَطَيْرٍ وَناسٍ. وَاسْتَيْقَظَ الأُمَراءُ الثَّلاثَةُ مِنْ نَوْمِهِمْ مَذْهُوشِينَ. فَقالَتِ الأَمِيرَةُ «رَائِعَةُ» لِلْأَمِيرَيْنِ «إِقْبالٍ» و«وَادِعَةَ»:

«ما أَشْبَهَ هذا الصَّوْتَ بِما سَمِعْتُهُ مُنْذُ عامٍ وَنِصْفِ عامٍ».

لَقَدْ صَدَقَتْ «رَائِعَةُ»، وَلكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ هذا وَذاكَ، شَتَّانَ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ: صَوْتِ الْيَوْمِ وَصَوْتِ الأَمْسِ. هذا يَجْلِبُ السَّعادَةَ وذَاكَ يَجْلِبُ النَّحْسَ، هذا يُعِيدُ الْحَياةَ، وَذلِكَ يَدْفَعُ إِلَى الرَّمْسِ (الْقَبْرِ)!

وَهَمَّتْ «رَائِعَةُ» أَنْ تُسْرِعَ إِلَى لِقاءِ أَبِيها، فَرَأَتْهُ ماثِلًا أَمامَها قَبْلَ أَنْ تَنْقُلَ قَدَمًا؛ فَقَدْ أَحْضَرَتْهُ الْجِنِّيَّةُ «صَبِيحَةُ» إِلَى الْقَصْرِ السَّعِيدِ قَبْلَ أَنْ يَنْفُخَ الأَمِيرُ فِى الْبُوقِ بِلَحَظاتٍ.

فَلَمَّا عادَتْ إِلَيْهِ الْحَياةُ سَمِعَ ابْنَيْهِ فى الْحُجْرَةِ التَّالِيَةِ؛ فَانْتَقَلَ إِلَيْهِما، وَعَقَدَتْ دَهْشَةُ الْفَرْحَةِ أَلْسِنَتَهُمْ جَمِيعًا؛ فَبَكَوْا فَتْرَةً مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ.

وكانَتْ ساعَةً بَهِيجَةً يَتَضاءَلُ أَمامَها الْعُمْرُ كُلُّهُ. وَأَقْبَلَ الأَمِيرانِ يَبْسُطانِ لِلمَلِكِ تَفْصِيلَ ما حَدَثَ. وَما إِنْ بَلَغُوا مِنَ الْقِصَّةِ نِهايَتَها حَتَّى رَأَوُا الْمَلِكَ «عاصِمًا» وَالِدَ الأَمِيرَيْنِ «وادِعَةَ» و«إِقْبالٍ» واقِفًا أَمامَهُما. وَما إِنْ رَآهُ وَلَداهُ، حَتَّى أَسْرَعا يُرَحِّبانِ بِهِ وَيُعانِقانِه، وَيَسْأَلانِهِ:

«كَيْفَ اهْتَدَى إِلى مَكانِهِما؟».

فَأَسْرَعَتْ «صَبِيحَةُ» إِلَى إِجابَتِهِما، وَقالَتْ لَهُما:

«لَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ الْبَهْجَةَ لا تَتِمُّ إِلَّا بِحُضُورِ المَلِكَيْنِ؛ لِيَشْهَدا زَواجَ الأَمِيرَيْنِ بِالأَمِيرَتَيْنِ».

وَهكذَا أُقِيمَتِ الأَفْراحُ، وَابْتَهَجَ الشَّعْبُ كُلُّهُ أَيَّما ابْتِهاجٍ.

وَكانَ يَجُرُّ الْمَرْكَبَةَ الْمَلَكِيَّةَ جَوادانِ كَبِيرانِ، لا نَظِيرَ لَهُما فى الْخَيْلِ رَوْعَةً وَفَخامَةً، وَحُسْنًا وَقَسامَةً، أَحْضَرَتْهُما الْبَبَّغاءُ لِيَتِمَّ بِهِما الْبَهْجَةُ والرُّواءُ.

وَلَا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ الْمَلِكَيْنِ وَالأُمراءِ حِينَ أَخْبَرَتْهُما «صَبِيحَةُ» أَنَّ الْجَوادَيْـنِ اللَّذَيْنِ أَحْضَرَتْهُما لِيَجُـرَّا مَرْكَبَةَ الزِّفافِ هُما الْمَلِكُ «مَرْمُوشٌ» وَوَزِيرُهُ «أُنْبُوشٌ» اللَّذَانِ أَسْرَفا فى إِساءَتِهِما، وَتَمادَيا فى اعْتِدائِهِمـا، وَتَفَنَّنا فى أَذِيَّةِ جِيرانِهِمـا، وَلَمْ يَتَوانَيا عَنْ إِلْحاقِ الأَذَى بِالْبَرِيَّةِ بَعْدَ أَنِ اسْتَعْبَدا ثَلاثَةَ أَرْباعِ الْمَمالِكِ الْهِنْدِيَّةِ.

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسَايِرُ التِّلْميذَ فى نَحْوِ مِائَةٍ وخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الإخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الأطْفالِ إلى خِتامِ التَّعْليمِ الثَّانَوِىِّ . ثُمَّ تُسْلِمُه إلى مكْتبةِ الكيلانىِّ للشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الخُلُقَ ، وتُرَبِّى الذِّهْنَ ، وتُعَلِّمُ الأدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ القارِئَ ويُمْتِعُه ، ويُحَبِّبُ الكِتابَ إلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّى مَلَكَةَ التَّعْبيرِ ، وتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصيحِ البَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أجْمَعَ عَلَى تَأْييدِها وُزَراءُ المَعارِفِ وزُعَماءُ التَّعْليمِ وقادَةُ الرَّأْيِ فى الشَّرْقِ ، وكِبارُ المُسْتَشْرِقينَ وأعْلامُ التَّرْبِيَةِ فى الغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بتَنْشِئةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبيةِ الصَّحيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعَاتُها العَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِهَا الجِيلُ الجَديدُ فى بِلادِ العُرُوبَةِ ، ولم يَخْلُ مِنْهَا بَيْتٌ عَرَبِىٌّ .

تُرْجِمَتْ إلى أكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وبَعْضِ اللُّغاتِ الغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إذَا عَرَفَها التِّلْمِيذُ ، سَعَى إلَيْها بلا تَرْغيبٍ ولا تَرْهيبٍ .

كَانتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ للآباءِ ، وهِىَ اليَوْمَ أشْهَى غِذاءٍ ثَقافِىٍّ للأبْناءِ .

obeikandl.com